نشاطركم الأرواح

obeikan.com

obeikan.com

نشاطركم الأرواح

مجموعة قصصية

يارا كمال

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلي

جدي/ محمد رشدي الحملاوي

الذي رسم غلافًا بحبر الكلمات

obeikan.com

obeikan.com

الشجرة

اليوم حصلت على الشهادة الابتدائية بمجموع مرتفع. كانت الأسرة سعيدةً بي، ووعدني والداي بمكافأة على نجاحي، ولكني قررت أن أكافئ نفسي بنفسي. أظنُّ أنَّني كبرت، ولا مانع من كسر قاعدة من القواعد التي يضعونها لي في البيت ولو مرة. أذهب مع صديقاتي اللاتي يزُرن تلك المنطقة التاريخية بالنسبة لنا ويتبادلن الحكايات والشائعات عن تلك الفتاة. أحب أن استمع إلى قصصهن المختلقة. رغم علمي بكذبها، ورغم أني شاهد العيان الوحيد على تلك الحادثة من أولها إلى آخرها، إلَّا إنَّني أميل إلى تصديق بعضها؛ فالأمر بالنسبة لي حتَّى الآن غير مفهوم على الإطلاق. لولا غرابة قصة الفتاة، ما كانت التفتت إليه صديقاتي أبدًا؛ فما الذي يجعلهن يهتممن بموتها، ما دُمن لم يهتممن بها في حياتها؟

obeikan.com

كنت دومًا أطلب منهن أن تشاركنا "وداد" اللعب، لكنهن كن يرفضن ويتمادين في السخرية منها. لم تكن "وداد" تهتم باللعب معهن إطلاقًا. كنت أجرُّها للعب معنا دون أن تُبدي مقاومة أو ترحيبًا. تمشي معي كما لو أني نوَّمتها مغناطيسيًا. لا تهتم عندما تسخر منها صديقاتي ولا تهتم عندما اعتذر لها على طريقتهن السخيفة. تلتفت إلى زهرة أو عصفور؛ فتنسى العالم. عندما نختبئ جميعنا في مداخل البيوت في المطر، تقف هي تلعب تحت قطراته بمنتهى النشوة مهما كانت شدته. كنت لا أرى الابتسامة على وجهها إلا عند نزول المطر. "كده هتعيا ومش هتعرف تروح المدرسة"، كانت هذه عبارة "هند" الشافية لحقدها على تلك الفتاة التي لا تخشى القوانين.

كانت "هند" نموذج لأي سلطة وعظية ومالية أيضًا. كانت تعشق نصحنا، حتى ولو كانت نصائح بلهاء مثل أن ارتداء فستان أخضر دون أي لون معه عيب. كانت طفلة ثرية في وجهة نظرنا وقتها، ولكننا اكتشفنا أن مستوى أسرتها المادي لا يختلف عن مستوى أي من أُسرنا، كل ما في الأمر إنَّها كانت طفلة مدللة مُجابة الطلب، لديها دراجة كبيرة تستطيع قيادتها بالكاد، ولديها كثير من اللعب والملابس تجود بها على من ترضى عنها. كانت لديها قدرة على السيطرة، تجعل من تغضب

عليها منبوذةً بيننا، وقد يكون سر هذا الغضب الاعتراض على اللعبة التي قررت أن نلعبها اليوم.

أظن أن "هند" كانت تخاف من "وداد"، ربما لأن "وداد" لم تقع ضمن أملاكها من أطفال المنطقة، وربما لغرابة أطوار "وداد"، أو ربما للسببين معًا. كانت "وداد" بطلة فيلم رعب بجدارة، بملامحها المصمتة الجامدة الدقيقة، وقصة شعرها التي لا تتغيّر: شعرٌ قصير مفرود ناعم أسود حالك وغُرة قصيرة، وعينٌ واسعة سارحة دائمًا. من يراها يظن أنها تخطط لجريمة قتل تنفذها في الليل. لكن كان شيءٌ بداخلي يدفعني للإشفاق عليها والإعجاب بها. كانت منبوذة غير مبالية بالنبذ. لم نكن نرى أسرتها أبدًا، ولم نكن نعرف بيتها. كانت آخر من يترك الشارع، ولولا ملابسها النظيفة دائمًا والتي تتغيَّر كل يوم لظننت أنها تبيت في الشارع.

يوم الحادثة، تشاجرت مع "هند" بسبب "وداد". لأول مرة، تجرأت "هند" ودفعت "وداد" لتسقط على الأرض. عندما اقترحت أن تلعب معنا "وداد" كطقس كل يوم. لأول مرة انفعل بهذه الطريقة على "هند"، وما زاد غضبي هو لامبالاة "وداد" بما حدث. كل ما فعلته أنها قامت ومشت بعيدًا عننا. شعرت وقتها أن "هند" تمادت في جبروتها، وإن كنت أظن أنَّها فعلت ذلك من باب

الفضول لكي ترى رد فعل "وداد" الذي خذل فضولها وخذلني.

صرخت في وجه "هند" بصوتٍ أخافها وأذهل بقية الصديقات. لا أذكر ما قلته لها بالضبط، ولكني تعهدت ألَّا ألعب معهن ثانيةً. مشيت أبحث عن "وداد" لأصب بقية غضبي على سلبيتها. عندما وصلت إليها وجدتها تنظر إلى سرب طيور يأوي إلى شجرة كبيرة. كانت شجرة معروفة في حينا وكان الأولاد يتسلَّقونها واثقين من أنَّها لن تسقط لضخامتها وصلابتها. كانت "وداد" تنظر إلى الشجرة كالمسحورة، وعلى وجهها ابتسامة خفيفة. صرخت غاضبةً مستنكرةً سلبيتها الشديدة، وهي لا تنظر إليّ. لوّحت بيدي أمام عينيها، ولكنها لم ترَني. لم تَرَ سوى سرب الطيور. نظرت أنا أيضًا إليه. كانت الطيور كثيرة للغاية، كما لو أن كل طيور العالم جاءت بغير انقطاع لتأوي إلى هذه الشجرة. ظلت الطيور تحط على الشجرة قرابة ربع الساعة. كان منظرها بهيجًا. أصبحت الشجرة كلها تزقزق بصوت عالٍ غير منتظم، رغم ذلك بدأت أمِلُّ.

نظرت إلى "وداد" لننصرف فلم أجدها بجانبي. عبرت الشارع الواسع شبه مُغيَّبة الوعي. كان عبور الشارع في هذا الوقت من الممنوعات لسرعة السيارات واتساع الشارع. كانت طفلة في السابعة يراها سائقو السيارات

بالكاد فيتوقفون في آخر لحظة ويصرخون لاعنين أهلها الذين تركوها تعبر الطريق بهذا التهور. وقفت مقيدةً لا أعرف كيف أتصرف، حتى أني لم أجرؤ على ندائها. وصلت إلى الشجرة بسلام، في الوقت الذي كانت الشجرة تهتز فيه بشدة. هل لم تتحمل الشجرة كم العصافير التي تحط عليها؟ عندما وصلت "وداد" إلى الشجرة، وقعت فوقها. صرخت وامتزجت صرخاتي بصراخ الآخرين. طارت العصافير فزعةً من الشجرة. حاول رجال المنطقة رفع الشجرة بصعوبة من فوق البنت. أزاحوا الشجرة حتى سدوا بها الشارع من ناحية. الغريب أنهم لم يجدوا الفتاة تحت الشجرة!

عبرت الشارع؛ فلم أصبر على رؤية ما يحدث. حفروا في طين الحديقة مكان وقوع الشجرة ولكنهم لم يجدوا شيئًا. لا أحد يعلم حتى الآن أين ذهبت "وداد". حملني أبي من بين الجموع وأنا مستسلمةً ناظرةً لما يحدث. لم يلمني أبي على الذهاب إلى مكان الحادثة، فالكل كان هناك. ظللت ذاهلةً عدة أيام بعدها؛ لا أكلم أحدًا. كانت أمي تشفق على من هول الحادثة، خاصةً بعدما علمت بأنَّ وداد صديقتي وكانت تربت على كتفي كلما مرَّت بي. لم أعرف إذا كان ذهولي ذهول دهشة أم حزن. لا شيء يؤكد أنَّ وداد ماتت.

نصحتني أمي بأن أنزل لألعب مع صديقاتي؛ فنزلت. لم يَرَ أحد لـ"وداد" أهلًا يبحثون عنها ولا يحزنون لفقدها، كما لو كانت تسكن الفضاء. بمجرد نزولي، سألتني صديقاتي -وأولهن "هند"- أسئلةً كثيرةً عن "وداد" واختفائها. كنت لا أعرف إجابة أغلبها. سرعان ما نسوا شجاري معهن، وسرعان ما ملّوا عدم تفاعلي مع أسئلتهن.

بعدما ذهبوا عني، وجدت فرصة لمعاينة المكان بعد أن هجر الناس مكان الحادثة. عبرت الشارع بتركيز. أول مرة أعرف أني أستطيع عبور هذا الشارع. ذهبت، فوجدت أن الشجرة قُطِعت ولم يبقَ منها سوى جزءٍ أقصر مني فوق الأرض. ثم وجدت العصافير مجتمعةً على الأرض مكان وقوع الشجرة، مشيرة بمناقيرها إلى الأرض، ولا تزقزق. لم يخِفها وجودي. كانت كلمى ذاهلةً عن كل شيء إلا مكلومها. أمعنت النظر في الشكل الذي تصنعه الطيور. أعتقد أنَّه كان على شكل فتاة في حجم "وداد". صارت "وداد" شجرة.

* * *

زجاجات فارغة

استيقظ من النوم لأجد زجاجات وأباريق المياه فارغة، تركها إخوتي وخرجوا. إذا استيقظت أمي ورأت الزجاجات ستتنزعج وتتساءل مستنكرةً: "لماذا لا يملأ كل شخص الزجاجة بعد الشرب؟". ستظل أمي تسأل هذا السؤال إلى الأبد دون أن تجد إجابة، ودون أن تجد من يهتم. لدينا مرشِّح مياه (فلتر) نملأ منه الزجاجات؛ فأبي يخاف علينا من مياه الصنبور الملوَّثة بالتأكيد، مع أني أشرب من مياهه في بقية البيوت التي أحل عليها ضيفة، فلا أجدها تختلف في الطعم عن مياه المرشّح. عيب المرشّح أنَّ المياه تنزل منه خيطًا رفيعًا أو ربما قطرات إذا انسد. أُلح على أبي كي ينظفه حتى تنزل المياه منه أكثر اندفاعًا حتَّى لا أنتظر بجانبه طويلًا حتى ينتهي من ملء زجاجة صغيرة؛ فهو لا يجعلني أنظفه حتى لا أخرِّبه.

لم يصل المرشّح إلى المرحلة التي تجعلني ألحّ على أبي لتنظيفه. سأنتظر حتى تنزل المياه منه قطرات بطيئة. أسوأ ما في الصيف بالنسبة لي هو ملء الزجاجات حتى نتمكَّن من تبريدها في الثلاجة؛ فبمجرد أن نُخرج زجاجة منها حتى تصبح مياهها كالمغلية. اللعنة على تلك الموجة الحارة. أسرتي كبيرة إلى الحد الذي يجعل أفرادها إذا اجتمعوا، ينسفون الزجاجات شربًا، وعليَّ أنا وأمي أن نملأها بعد أن تصرخ أمي فيهم بأن يملأ كلٌ الزجاجة التي شربها، فيديرون بينهم تهمة شرب الزجاجة في أحسن الأحوال إذا التفتوا لها من الأساس.

لا أملأ الزجاجات من باب الشهامة، ولكني الوحيدة التي تبقى في المنزل وقت العطلة الصيفية، وأمي هي رفيقتي الوحيدة؛ وبالتالي أنا من سيعاني من مزاجها السيء حتى عودة البقية. أنا الأخت الوسطى والابنة الوحيدة؛ فلا أنا كأخويَّ الكبيرين اللذين يقضيان وقتيهما بين النوم والخروج مع أصدقائهم، ولا أنا كأخويَّ الصغيرين اللذين يقضيان الوقت في اللعب، ولكن الكبيران مسافران الآن والصغيران نائمان. هما لا يستيقظان إلَّا في العصر وربما بعده.

لدى صديقاتي دومًا أسبابٌ لعدم الخروج: أبو هذه لم يوافق، والثانية ليس لديها رغبة في الخروج، والثالثة ترد بسؤالها المعتاد الذي لا أعرف إجابته أبدًا: "أين نخرج؟". من الصعب والسخيف أن تتفق فتيات على

الخروج. يزيد الصيف سأمًا هذه المهمة السخيفة: ملء الزجاجات. في الشتاء، لا نحتاج إلا إلى ملء إبريق كبير ولا نشرب هذا الكم من المياه. أنا شخصيًا أشرب في هذه الفترة بالكثرة حتى أتمنى أن أضع خرطومًا في فمي يغذيني بالمياه طوال الوقت.

أُعِدُ إفطاري وأضع مياهًا في إبريق الشاي من زجاجة من زجاجات الشرب؛ فأبي لا يحب أن يشرب الشاي من مياه الصنبور أيضًا. حاولت أن أقنعه بأنَّ النار تقتل أي بكتريا، لكنه لم يقتنع؛ ولأنني أنسى في كل مرة أن أصنع له الشاي من مياه المرشّح، قررت أن اعتاد أن أصنعه لنفسي منها حتَّى لا أنسى بعد ذلك. أترك الماء إلى أن يغلي حتى أملأ الزجاجات. نضع تحت المرشّح كرسيًا صغيرًا كنت أجلس عليه في صغري. لم يعد الآن يناسب أيًا من إخوتي الصغار. نضع فوقه زجاجات المياه ونضبط فتحتها على خيط المياه. أحاول ضبط فتحة الزجاجة على خيط المياه، ولكنه يلاعبني يمينًا ويسارًا ويبلل الكرسي، وتتسرب المياه إلى الأرض. أقرر أن أغلق صنبور المرشّح وأجفف المياه من على الكرسي والأرض. أمسك بالزجاجة وأرفعها قريبًا من فتحة الصنبور وأفتحه لأملأها. ما هذا الملل! أعد من واحد إلى عشرة حتى تمتلئ الزجاجة.

واحد.. لمَ لا نملأ الزجاجة من الصنبور العادي؟ لمَ لا نتسمم ونرتاح؟

اثنين.. وصل الماء إلى أول انحناءة في الزجاجة بعد أول سنتيمترين من قاعها. هانت.

ثلاثة.. أدندن أغنية وأتراقص معها.

أربعة.. يدي بدأت تؤلمني.

خمسة.. الحوض محتاج إلى تنظيف. سأنظفه في المرة القادمة التي أنظف فيها. ربما اليوم.

ستة.. هل غلى الماء يا ترى؟

سبعة.. لا بأس لم يفت من الوقت ما يجعل الإبريق يحترق. كل ما سيحدث أن بعض المياه سوف يتبخر.

ثمانية.. الماء يتبخر سواء تركت الإبريق أم لا. ما هذا الهراء!

تسعة.. الزجاجة على وشك الامتلاء.

عشرة.. أغلق الصنبور وأترك النقاط الأخيرة تنزل في الزجاجة حتى لا تبلل كرسيّ الصغير. الكرسي تشوه بوجوده هنا. القطرات التي تنزل عليه، سرقت لون قاعدته مكونة بؤرة شاحبة في منتصفه.

أذهب لأرى الإبريق فأجد الماء بداخله يغلي. أضع السكر والشاي والماء واللبن في كوبٍ عادٍ، ليس لي كوب خاص كبقية إخوتي ولا أجد لذلك داعٍ. أمسك بالكوب في يد وزجاجة جديدة في اليد الأخرى. أحاول

أن أوفق بين شرب الشاي وعدم اهتزاز الزجاجة من يد الأخرى حتى لا ينزل الماء على الأرض وعلى رجلي. أتذكر أنني أقف في الحمام وأن الشرب هناك قد يكون حرام. أغلق الصنبور وأضع كوب الشاي حتى أنتهي من ملء الزجاجة. ما هذا العذاب يا ربي! أفتح الصنبور حتى تمتلئ الزجاجة. من الممكن أن تبرد كوب الشاي. لكن لا، فإن الجو حار للغاية. لن أملأ بقية الزجاجات حتى أنتهي من شرب الشاي.

أنتهي من ملء الزجاجة وأذهب لأشرب الشاي؛ فأجده باردًا. أفتح التليفزيون وأكمل الشرب بحسرة. أقلّب كل قنوات السينما والدراما دون أن أجد شيئًا أستطيع مشاهدته. اضطر إلى مشاهدة فيلم سخيف شاهدته ما لا يقل عن عشرين مرة. يكفي أنه صوت في بيتنا الصامت. أشرب الشاي وأكمل فطوري. ثم أكمل ملء الزجاجات على نفس المنوال، تاركةً التليفزيون يحدث ضجيجًا غير عابئة بما يُعرض. عندما أنتهي من ملء الزجاجات، أحملهم معًا في حضني لأضعهم في الثلاجة.

عندما فتحتها عند استيقاظي لأخرج زجاجة باردة أشرب منها، لم أجد سوى زجاجتين على وشك أن يتبخَّرا الآن خارج الثلاجة في هذا الجو الحار. أخرجت بعض قوالب الثلج التي قد تكون في السابق علب آيس كريم أو حتى صناديق الغداء التي تعطيها أمي لأخي

الصغير في المدرسة والتي لا يحتاج لها في الصيف. أتذوق طعم الأكل المطبوخ في المياه عندما أضع الثلج من تلك القوالب فيها. لا نستطيع أن نضع الأباريق الكبيرة في الثلاجة ولكن يمكننا وضع قطع الثلج فيها حتى يبرد ماؤها. أضع قطع الثلج في إبريق وأملأ القوالب من إبريق آخر. لم أكن أعلم أن الشرب صعب إلى هذه الدرجة.

أرتب سريري وسرر إخوتي وأهندمها. أشرب بعض الماء. الثلج الذي وضعته في الإبريق اختفى وأصبح ماء الإبريق فاترًا. لا أظن أن بقية الزجاجات تجمدت. لن أخرج زجاجة جديدة إلا عندما أشرب مرة أخرى. لا أتصور كيف شربت زجاجتين كاملتين في ساعة. على كل حال، الماء مفيد. لن أملأ الزجاجات حتى تكتمل ست زجاجات فارغة.

لا يوجد شيء آخر أفعله. لا، الحوض. يجب أن أنظف الحوض فهو متسخ للغاية. أنظفه وأدور في الشقة. أشرب من التعب. أحضر زجاجة باردة من الثلاجة. الشقة نظيفة لا تحتاج إلى تنظيف. لماذا أصحو مبكرًا؟ لم يحِن موعد استيقاظ أمي بعد. أتصفَّح "فيس بوك"، ولكن لا جديد والجميع نائمون. لا يمكنني أن أتصل بإحدى صديقاتي؛ فهن لا يستيقظن الآن. ليس لي هوايات، ولا أحب القراءة. أسمع أن القراءة ممتعة،

ولكن حين جربتها لم أجدها كذلك بالمرَّة. ليس لي علاقة بها سوى الكتب الدراسية؛ فأنا متفوقة.

أشعر أن معدتي امتلأت بالماء، ولكن لساني جاف من العطش. لا بأس من شرب الماء أبدًا. أشعر أن بطني منتفخة بالماء كمن سيجري أشعة بالصبغة. أعلم أنها مؤلمة لأنها تستلزم من المريض أن يشرب كثيرًا. أبحث في التليفزيون عن شيء أشاهده. كنت أحب هذا الفيلم كثيرًا ولكنني مللت منه. بعد بحث، اضطر إلى مشاهدته مجددًا. تستيقظ أمي ممتعضة من الزجاجات الثلاث اللاتي لم أكلف خاطري أن أملأهن. أشعر بالظلم الشديد وأشرح لها كيف كان الحال عندما استيقظت أنا. اضطر إلى ملء الزجاجات وأعرض عليها مساعدتي في المطبخ ولكنها تخبرني إنها لن تطبخ اليوم وستشتري سمكًا مشويًا جاهزًا. السمك يشعرني بالنعاس وسيجعلني أنام مبكرًا، لأستيقظ مبكرًا غدًا وأقابل الوحدة، كما أنه يشعرني بمزيد من العطش. أمي لا تتكلم معي ولا تحكي لي شيئًا عن نفسها؛ فكلانا ليس لديه ما يحكيه. نحن دائمًا في البيت.

استنفد أنا وأمي زجاجات المياه، فأخرج قوالب الثلج وأضعها في الأباريق، وأملأ زجاجات المياه ثانيةً. يأتي وقت العصر. أصلي. لست مواظبة على الصلاة، ولكنها فرصة جيدة لتمضية الوقت. يستيقظ أخي الذي يصغرني بسنتين. لا يتكلم أخي مع أحد قبل مرور نصف ساعة

على استيقاظه. أشعر أني لم أره منذ فترة، فهو دومًا خارج المنزل. لم يكن شعره طويلًا هكذا. متى أصبح نحيلًا هكذا؟ لا يكُف أخي عن لعب الكرة؛ بالتأكيد هي السبب في نحوله.

لِمَ لا تكون هناك رياضة للفتيات تتسبب في تنحيفهن بدلًا من خطط الريجيم العقيمة؟ يخرج أخي من غرفة نومه التي يتشارك فيها مع إخوتي. ربَّما الميزة الوحيدة لكوني فتاة هي أنَّ لي غرفة صغيرة لا يشاركني فيها أحد. اقتطعها والدي من غرفة الطعام خصيصًا لي. يتوجَّه أخي مباشرةً إلى زجاجة المياه ليشربها مرة واحدة. أُذهل لقدرته على شرب المياه بهذه الطريقة. أجلس لأشاهد التليفزيون، وكالعادة لا أجد ما أشاهده. أشرب وأقيس ما ينقص من كل زجاجة. أضيف من الماء الفاتر على الماء البارد لأقلل من برودته. أشعر أنني كيميائية في معملها. أعود إلى مكاني، مراقبةً كل من يشرب من زجاجات المياه. أضع الزجاجات الفاترة في الثلاجة وأبدلها بأخرى باردة.

تفرغ جميع الزجاجات والأباريق ما عدا واحد دون أن تلحظ أمي. أريد أن اشرب. يخرج أخي ليشرب قبل أن ينزل. يستنكر أنَّه لا توجد أيَّة زجاجات باردة. أعترض أنَّه لا يملأ الزجاجات التي ينتهي من شرب ما بها. تأتي أمي لتأمرني بأن أملأ الزجاجات. للحظة يتصاعد الدم في دماغي، ولا أستمع إلى ما يقولون ولكني أراهم

يتحدثون بسخافة معي وكأني خادمة. أدفع الإبريق وأدفع أخي وأمي وأدخل غرفتي وأغلق بابها. أسمع طرقًا على باب الغرفة. لم أرَ نفسي بهذه العصبية من قبل. أبكي بهستريا. لا أعلم ما يحدث في الخارج. أسمع صوت أمي مختلطًا بصوت أخي، ولكن لا أميّز ما يقولان. هل تأمرني أمي بأن أخرج لأصلح ما سكبته أم توبخ أخي لأنه دفعني إلى هذه الحالة وتأمره بإصلاح ما أفسده هو؟ أم اضطرت هي إلى مسح الماء الذي سكبته؟

❊ ❊ ❊

obeikan.com

نشاطركم الأرواح

الآن وقت مناسب للاستحمام. المطر يهطل بغزارة والريش المنبت بداخلها تحوّل رماديه إلى أسود. الوقت ليس متأخرًا للغاية، ولكن المطر جعل الشارع يخلو من البشر إلى حدٍ كبير والظلمة ساترة. تصعد إلى حافة النافذة وتُطل بجسدها إلى الأمام وتقفز وتطير. لا بل تختفي. يأتي الساكن الجديد إلى العمارة حاملًا أغراضه الثقيلة والكثيرة، فيساعده الحارس على حملها. ينظر الساكن الجديد إلى أعلى، ليراها واقفة على حافة النافذة مستعدة للقفز وسط قطرات المطر. أهي منتحرة أم تظن نفسها قطرة مطر جاءها الأمر لتستقر على الأرض؟

obeikandl.com

ينادي الساكن الجديد على الحارس صارخًا مشيرًا إلى تلك الفتاة المجنونة التي ستنتحر. يلمح ابتسامةً لا يراها بوضوح من أسفل العمارة على وجه الفتاة. يطيّر الهواء شعرها الأسود وملابسها الخفيفة الطويلة البيضاء إلى داخل الشقة. تمسك بعارضة النافذة، كما لو كانت ملاكًا يتردد في الهروب من الجنة إلى الأرض. لا يعبأ الحارس بخوفه هذا ويطلب منه ألَّا يهتم. ينقبض صدر "كريم"، الساكن الجديد، من السكن في هذه العمارة المليئة بالمجانين، ويتسمَّر مكانه. قرر الحارس أن يحكي له قصة هذه الفتاة سريعًا حتى ينتهي عجبه أو ربما يزداد، ولكن على الأقل سيعذره على عدم اهتمامه.

يقول بلهجة صعيدية إنَّ هذا الفتاة بين الحين والآخر تصعد إلى النافذة وتقرر إلقاء نفسها؛ فيجتمع الناس ويصرخون وننادي محذرين، ونبحث عن ملاءة قوية نلقف بها جسمها قبل أن تهشمه الأرض؛ فتقفز ونشعر كما لو كانت تطير لمسافة قصيرة ثم تختفي، وننتظر أن يسقط جسدها أو أن نجدها في مكان ما، ولكنها لا تظهر؛ فنصعد إلى شقتها لنتأكد من وجودها. تفتح بابها متبرمة من الإزعاج التي سببناه لها، وعندما نخبرها بأننا نريد الاطمئنان عليها، تستعجب وتتساءل عمَّا دعانا إلى القلق؛ فنواجهها بشروعها في إلقاء نفسها من النافذة، فتتهمنا بالجنون. مرتين، ثلاثة، ولم يعيدوا الكرَّة. "تلاجيها (تلاقيها) ملبوسة يا بيه".

يستمع كريم إلى حديث الحارس بإنصات ثم ينظر إلى نافذة الفتاة ثانيةً، فيراها تلقي بنفسها. بالفعل يلمحها تطير للحظة ثم تختفي. يقول الحارس: "يلا يا بيه، غرجنا مطرة"، قالبًا القاف جيمًا. بينما هي تطير، يسمع الحارس في صندوق يحمله مغطى بالقماش صوت رفرفة قوية، فيسأل كريم عمَّا بالصندوق، فيخبره أنه قفص عصافير. يقول الحارس: "ده صجر مش عصفورة".

يتوسَّل الحارس لكريم مرارًا طوال الطريق أن يخبره إذا كان ما بالقفص صقرًا؛ فهو لا ينقصه أي توبيخ من السكان غير وجع الرأس الذي تسببه له تلك الفتاة غريبة الأطوار. يُذهَل عنه كريم الذي ينظر مرة خلفه ومرة أعلاه متعجبًا من قصة تلك الجارة. كلما ناداه الحارس، يقسم له أن ما يحمله ليس صقرًا، ولكنه رفض بشدة أن يريه ما بالصندوق، ووعده بأنَّ عصافيره لن تثير أي شغب. يصعد إلى شقته ويخلع الحذاء والجاكيت المبتلين ويضع أغراضه في مكانها ويطلب من الحارس أن يشتري له بعض التموين من سكر وقهوة وخبز إلى آخره. انتظر حتى أحضر له الحارس طلباته، والذي قبل أن يرحل، سمع نعيقًا. تساءل الحارس إذا ما كان هذا الصوت قادم من الداخل، ولكن كريم أقنعه بأن الصوت قادم من الشارع بالتأكيد.

كان كافيًا بالنسبة لكريم أن يصنع كوبًا من القهوة قبل أن يبدأ حياته في شقته الجديدة، ولكن قبل ذلك كشف قفص بومته الرمادية التي كادت أن تختنق وهو يعتذر لها عن حبسها وعن كراهية البشرية لها، وتعجَّب من الطريقة التي تنظف بها تلك الكائنات نفسها؛ ففي الأيام الماضية تحوَّل لون ريشها إلى الأسود من قلة الاعتناء بسبب انشغاله بانتقاله الجديد، ولكن ها هي اعتمدت على نفسها ونظفت ريشها.

يبدو أن بومته استيقظت لتوها، فهي لا تزال زامةً عينيها ويبدو عليها النعاس. تمنَّى كريم لو أنَّها تستطيع أن تشاركه شرب القهوة، ولكن البوم يسهر دون الحاجة لشربها. صنع قهوته وأخرج أدوات رسمه. كانت تلك الفتاة غريبة الأطوار لا تزال تشغل باله. استرجع منظرها وهي ممسكة بإطار النافذة ورسمها كما كانت ولكنه استبدل جزءًا من فستانها الذائب في الهواء بجناحين. كلما شرب رشفة من القهوة، كانت عينا بومته تتسع.

بعد نصف ساعة، كان أنجز جزءًا لا بأس به من لوحته عندما أفاقت البومة من نومها تمامًا، شرعت تنعق بصوتٍ عالٍ وباستمرار. تحيَّر في أمرها وتوسَّل إليها أن تكف، حتَّى أنه فكر أن يلصق منقارها. أحضر لها ماءًا وطعامًا ولكنها رفضتهما، حتى دق باب شقته. فتح، فوجد الفتاة ترتدي نفس الفستان. بادءها بالاعتذار عن

صوت الضوضاء التي تحدث في شقته، من توتره، حتى أنه لم ينتبه لضرورة التستُّر على وجود بومة في شقته، وهذا التستر يحتاج إلى قدر من اللامبالاة واصطناع البراءة. قالت له الفتاة أنها لم يصلها أي صوت غريب إلى شقتها.

- لم أسمع صوت بومتك إلا عندما فتحت الباب، فعرفت لماذا كنت تزورني أنت وهي في أحلامي منذ البارحة.

- نزوركِ في الأحلام؟

- يبدو أن بومتك تنبأت بأنك لن تفهم آلامها، فاستنجدت بي. أتمنى أن يكون ما توقعته صحيحًا. هل يمكنني الدخول؟

- نعم بالطبع، ولكني خائف على سمعتك أنتِ.

- لا تخف. أظن أن سكان العمارة فقدوا اهتمامهم بي.

ضحكت ودخلت. توجهت نحو القفص مباشرة وكأنها تعرف مكانه مسبقًا.

- ما اسمك؟

- سهر. وأنت؟

- كريم.

- هل تريدين قهوة؟ للأسف هي المشروب الموجود لدي الآن، فلم أصل إلَّا منذ ساعة تقريباً.

- إذا كنت ستشرب، فمن الممكن أن أشاركك. صحيح أنا لا أحتاج إلى القهوة، فأنا أسهر بطبعي، ولكن طعمها حلو.

فتحت باب القفص وأدخلت منه أصابعها الطويلة الرفيعة، رفعت بعض ريش البومة، فنعقت البومة بشدة وألم على ما يبدو.

- كما توقعت. لديها ندوب مكان الريش، نتيجة قلة الطيران. سأضع لها مرهمًا يجعل جروحها تطيب.

- هل تملكين بومة؟

- كلا.

- إذن من أين عرفتِ بشأن هذا المرهم؟

- أضعه عندما أصاب بهذه الحالة.

- ماذا؟

- لا تهتم كثيرًا بما أقول. ما أعلمه أن هذا المرهم سيكون مفيدًا لها.

- هل أنتِ متأكدة؟

- لا تقلق، ولكني لا أضمن لك أن تبقى بخير. ستعاودها الحالة، إذا بقت بلا طيران.

- وكيف أضمن أنها لن تعود إذا طارت؟

- أنا أضمن لك. ولكن لماذا تمتلك بومة؟ قالت وهي تدعك منابت كل ريشة في جسد البومة بالمرهم بلطف، بينما تنعق البومة بألم، فتداعبها كأنها تهدهد طفلاً.

- أعجبت بالفكرة عندما شاهدت سلسلة هاري بوتر، عندما كنت صغير. ربما هي السبب في أن أكون هنا الآن، فشراء البومة لم يرُق لأهلي، ومن هنا بدأت سلسلة أشياء أفعلها لا تعجبهم، فقررت أن استقل، وتلك هي ثاني شقة أسكنها منذ تركت أهلي وقت الجامعة، لكني أزورهم بالتأكيد بدون بومتي.

زامت سهر فاهمةً كلامه، ومكث الصمت بينهما لفترة وهما يشربان القهوة. تهدأ البومة وتغلق عينيها وتكف عن النعيق.

- يبدو أن لوصفتك أثرًا مذهلًا. شكرًا جزيلًا. ولكنك لم تخبريني كيف تضعين المرهم الذي تضعه بومتي؟

- أحيانًا تظهر في جسمي ندوب، استخدم لها هذا المرهم.

- لهذا تخرجين خارج النافذة لتتحممي بماء المطر؟

- لن أستطيع أن أفهّمك، فأنا شخصيًا لا أفهم. قالت ضاحكة.

- إذن ما الذي يجعلك واثقة من أن مرهمك سيأتي بنتيجة مع بومتي؟

- أنا فقط أصدق قلبي، بل روحي، وهي دلتني أن أفعل ذلك، مثلما تحك جسمك بيدك فطريًا عندما تشعر بحكة. هل تفهم؟

- بصراحة لا أفهم علاقة هذا بذاك، ولكن ليكن، المرهم أتى بالنتيجة المطلوبة.

- ولكن عدني بأنك سوف تتركها تطير ليلًا.

- إذا وعدتِني ألا تطيري أنتِ؟

- أعدك.

- بهذه البساطة؟ يبدو أن لبومتي دلال عليكِ.

- لا فرق بيننا. تقول ضاحكة ويسكتا قليلًا ثم تقول: رسمتك هذه جميلة.

- إذا نفذتِ وعدك، سأعطيها لك.

- سأنفذه، ولكن ينقصها شيء.

- ماذا؟

- اعرفه بنفسك. شكرًا على القهوة. يجب أن أغادر. على فكرة، إذا أردت أن تشاركك البومة القهوة، فلن يضّرها شربها في شيء.

- يبدو أن سأحتاجك كثيرًا في التعامل مع بومتي. آسف أني عطلتك عن النوم. سأشعر بالذنب، إذا تأخرتِ عن العمل غدًا بسببي.

obeikan.com

- لا. أنا لا أعمل بالنهار. أن مدربة رقص معاصر والتمرينات تكون ليلًا.

- جميل هذا العمل. على العموم، أنا سببت إزعاجًا.

- لا عليك. إنها البومة.

- أعتذر بالنيابة عنها.

- قلت لك لا فرق بيننا.

صعدت إلى شقتها ودخل شقته ونام لا يدري متى. عندما استيقظ، ظن أن ليلة أمس كانت حلمًا، ولكنها كانت ليلة من اللاتي يتغير بعدهن وجه الكون.

بعد يومين، عند عودتها من العمل، وجدت إطارًا خشبيًا عند باب شقتها. فتحت غلافه فوجدت فتاة لها فستان أبيض خفيف يطيّره الهواء تستند بإطار النافذة ولها جناحان ورأس بومة.

❊ ❊ ❊

في وداعة الذئب

اكتمل القمر، فكان موعد لقائنا الأبدي. لم يكن موعدًا سعيدًا. لم أكن كبدر التمام. مع أني أكره نفسي، لكن لو كنت بدر التمام، لكرهتها أكثر، ولكان لي شكل عدوّه. حاول أبوه الملك أن يرفع السحر عنه. أتى بالأطباء الذين استسلموا أمام قوة الجن، فأتى بالسحرة الذين استنفدوا حيلهم حتى الضرب. لم أتحمّل ضربهم له، فذُدت عنه بجسدي الثقيل ويدي القوية، حتى أن الملك عاقب أمي بالحبس في المطبخ لمدة أسبوع؛ فعاقبتني بدورها بالضرب بالمقشة.

obeikandl.com

أحب أن ألقّب ملكتنا بـ"أم الأمير"، فهي امرأة مستكينة سلبية لا تملك أيًا من صفات القوة التي تمتاز بها الملكات ولا تفعل شيئًا سوى البكاء، حتى أنها لا تملك القوة للدفاع عن ابنها.

نعم، هي ليلة واحدة، ولكن إذا انفضح السر، سيأتي كل طامع في الحكم، لينهش الذئب. الوضع متأزّم بالنسبة للملك حتى أتى إلى الدنيا ولي عهد جديد. صرت أسمّي الملكة "أم ولي العهد".

كلانا وحوش بقلوب حملان. كنت شجرة جميز ذابلة، مع ذلك يرميها الناس بالحجر. الشامة الكبيرة أسفل أنفي كفيلة بتشويه بوجهي بالتعاون مع انفراجة أسناني التي تجعل ابتسامتي بشعة، ولكني قلما ابتسم، ساترةً أسناني بشفتي الغليظتين. شعري متمرد جدًا، ولم تُفلح كل محاولات أمي لقمعه بالأربطة أو لتشذيبه، ناهيك عن ثقل وزني الذي لا يزيد ملابسي المهترئة تشوّهًا، ولكنه جدير بأن يجعل ثنايا جسمي تُصدر رائحة لا تسر عدوًا ولا حبيبًا. باختصار أنا مزيج محبوك من القبح. انعزلت عن أبناء سني الذين عاملوني معاملة أبله القرية، فكانت أبسط أشكال التنكيل بي هي السخرية مني والتي تتطور إلى الضرب وإلقاء الحجارة حتى تمزيق الملابس. في مثل سني تنتبه الفتيات لأنوثتهن، فلم أنتبه أنا إلا لقبحي.

كان ذئبي يجلس شاردًا دائمًا، وإذا انتبه لوجودي ابتسم لي. لم يكن سوى حملًا وديعًا، كأنه يجمع كل ما به من شر إنساني كل شهر ليتطهّر منه ليلة التمام. مراهق أشقر دقيق الملامح، لم تظهر ملامح الرجولة بعد على وجهه ولم يزيد طوله كبقية الشبّان في سنه. يرتدي ملابس فخمة ملكية تكاد تكون ضد الاتساخ من نظافتها.

لم يمر أول اكتمال للبدر بعد ولادة ولي العهد الجديد بسلام؛ فاستكانة الملك لكون ابنه الكبير مستذئب فاض بها الكيل بعد أن وجدت العوض. سَرَت في القصر حالة طوارئ منذ الصباح. زاد عدد الحراس حول القصر ومُنِع أي غريب من الدخول. وقف الأطباء والسحرة في الطرقات يتباحثون، ويتبادلون اللوم فيما بينهم، ويشمتون ببعضهم البعض. كان الأمر يشبه قصة فرعون وأوديب، كأن الملك رأي حلمًا بأن ابنه يقتله، فقتله هو.

"قد يكون الأمير أقوى من تلك القيود إذا تحوَّل"، قال أحد الأطباء. "قيدوه! هل هان الأمير على الملك إلى تلك الدرجة؟".

لم ينتبه أحد لوجودي في ظل التوتر السائد وأنا أتجه نحو غرفته بهدوء لأراه. لم أرى أم ولي العهد، وأتوقّع أنها في غرفتها الآن تبكي. وصلت إلى غرفته عندما

كان الحارس يغلق الباب. عندما وارب الباب، رأيت الأمير مكبلًا بأغلال غليظة في يديه وقدميه وعنقه كذئب مستكين يمسكه أسد بقسوة من رقبته. كل تلك القيود لكي تمنع هذا المسكين من الخروج؟ بعد ثانية من هذا المشهد، صفعني الحارس بظهر يده. سمعت صوت الباب وهو يُغلق قبل أن أتمادى في إغماءتي.

أفقت على صوت زئير ذئب وصراخ. بدد زئيره يقيني باستكانته ولكنها كانت أشبه بصرخة استنجاد. كأن زئيره بعث فيَّ الروح من جديد؛ فأخذته من يده، أقصد سحبته من رجله، وجريت معه. ذهبت إلى حجرة أمي. مررت على المطبخ وأنا في طريقي. رأتني أمي ففزعت وجرت وراءنا. حاولت أن تمنعنا من دخول الحجرة، ولكني سبقتها وأغلقت الباب بالقفل.

بدخوله الحجرة، برك على الأرض كجملٍ متعب. كانت عيناه تتلألأن وكأنَّه يبكي، وكان ناباه متدليان من جانبي فمه كطفلٍ يمط شفته السفلى. تفضح عيناه هذا الأمير بداخله لمن تأمَّل. كنت متعبة أنا أيضًا. سندت رأسي على فروه، فثنى جسمه ليحيطني وغطَّاني بذيله. كانت أمي تدق الباب بقوة وخوف وتصرخ.

هزَّني ضوء الشمس لأصحو. نظرت إليه متوقعةً أن أرى الأمير بعد أن زال عنه سحر الأمس. مازال ذئبًا

فاتحًا عينيه نحو الشمس. يبدو مسترخيًا في نورها، ترمش عيناه ببطء، مستسلمًا لاتخاذي جسده وسادة. كان فروه البني يميل إلى الأحمر في ضوء الشمس. أعرف أنَّ شعري في ضوء الشمس يبدو مغبّرًا.

سمعت صوت شخير أمي من خلف الباب. أنا لا أخطئه أبدًا، فهو يبدأ بصوت صفير طويل يعلو بالتدريج ثم يتحوَّل لما يشبه الغرغرة. قمت ومسَّدت على ظهر ذئبي تحيةً للأمير. نظرت من الشباك لأفكّر في حل لخروجنا من هنا. لم أكد أطل حتَّى رأيت الحراس يحيطون الجهة المطلة على الحجرة، فابتعدت فورًا. نظرت إلى الذئب، وسألت نفسي كيف غاب عني أنَّه لم يعُد إلى صورته الآدمية حتَّى الآن. الشمس على وشك أن تتوسط السماء، وهو مازال ذئبًا.

بقيت جالسةً أمامه أفكر في حل. حتى فاجأنا حارسٌ يمسك سهمًا وقوسًا يقتحم الغرفة. قبل أن يضرب سهمه، وقفت بين الذئب والحارس، وأخذت أصرخ: "لدي اقتراح. أرجوكم. يا مولانا الملك." تفكَّر الحارس وتسمَّر. دخل الملك تابعًا صوت صراخي، فاقترحت قبل أن يتكلَّم، أن يكون الذئب حيوان الملك الأثير وأنا حارسته، وأن تُتخذ كافة الاحتياطات لحماية الناس منه. ذلك في حالة إن ظل ذئبًا. أما لو عاد أميرًا يتحوَّل إلى ذئب، فيمكن للملك أن يبني له بيتًا في الغابة وأنا أخدمه.

وافق الملك على اقتراحي. وضعت ذراعي على كتف الذئب استنهضه. قام معي وخرجنا من الغرفة. وقف سكان القصر على صفي الطريق خائفين ورأيت أمي تبكي ذاهلة. كانت أم ولي العهد تبكي في حضن الملك الحزين الخائف.

أجلس في قفصٍ حديدي مفتاحه بجيبي، مع حبيبي. أرتدي ملابس جديدة أهداها لي الملك. أخبئ وجهي خلف وشاح استعرته من أمي التي سلّمت للأمر الواقع. لا داعي لأن يراني المتفرجون فيلقوني بالحجارة، فيتأذّى ذئبي. أعود أحيانًا إلى المطبخ أو إلى غرفة أمي لأزورها وأتناول الطعام، وأحيانًا لأنام مع أنّي أحب أن أنام في فرو صديقي. كبر الأمير الصغير ولي العهد أخو الذئب ليكسر البيض فوق رأسي ويضحك. أخاف يوم يصبح شابًا أن يُطلقني أنا وأخاه الذئب في الغابة لنجري منه، فيصطادنا.

❊ ❊ ❊

قمر ترجَّل

أهرامات خضراء مكتسية بالبياض تعلو سيقان بنية باهتة، خاط فيها الأطفال بشرائط ملوَّنة صغيرة أمنيات العام الجديد. لم يبلغوا إلَّا الأغصان القريبة من الأرض ليتوسلوا إليها أن تحقق أمانيهم. كلما علت القامة وكبر المتمني، صعدت الأمنية بعض سنتيمترات إلى السماء، إلا أمنية شادي. شادي كان طفلًا قصير القامة، ولكن أمنيته بلغت السماء لأنَّها كانت بدر التمام. اعتاد شادي أن يقضي آخر ليالٍ قبل بداية السنة في ضوء البدر، ولكن تصادف في هذه السنة أن يطل الهلال في تلك الليالي.

obeikandl.com

اعتقد شادي أنَّ البدر يدير وجهه عنه غضبًا. استسمح شادي البدر وسأله مرارًا عن سبب غضبه منه، ولكنه لم يجبه. ترددت الأسئلة في ذهن شادي: هل القمر غضبان لأني لم أحصل على الدرجة النهائية في الحساب كالعادة؟ ولكن ما شأنه؟ أمي نفسها لم توبخني. هل لأني دفعت صديقي أرضًا ونحن نلعب الكرة؟ هو أيضًا سامحني.

استأذن شادي أمه أن يأخذ وردة من الزهرية، ولصق الوردة مكان أخرى كان قطفها من حديقة الحي، ربما حزن القمر من أجلها. حتَّى إنَّه أخرج دُبَّه القديم البالِ من القمامة، بعد أن قرر التخلص منه، فربما تلك لعنة الدب التي قصّت القمر واختصرته هلالًا أو لونت بقيته بلون الليل. استنفذ شادي محاولات استرضاء القمر حتى آخر يوم في السنة. قضى شادي ليلة رأس السنة ناظرًا إلى الشباك، منتظرًا القمر الكامل يرمي عليه السلام ويقول له: "صافي يا لبن"، لكن القمر مازال مصعرًا خده مخاصمًا شادي. فتح شادي هدية "بابا نويل" متوقعًا أن يكون بداخلها بقية القمر، ولكنه وجد بداخلها سيارة تتحرَّك عن بُعد، فوضعها في علبتها وأخذ يفكر في السنة التي لا تبشّر بخير أبدًا.

في اليوم التالي، جلست جدة شادي تمسّد شعره البني وتتأمَّل ملامحه الدقيقة الوديعة، قبل أن توقظه ليذهب

إلى المدرسة. فجأة، فزع شادي من النوم. حلم شادي ببدرٍ غاضب يمسك بهلالٍ مدببٍ ويضربه به. الهلال مرةً يصير خنجرًا مقوَّسًا يطعنه به البدر في جنبه، ومرَّة يصير كرباجًا يضرب به كتفه. فزعت جدته لانتفاضته ورسمت الصليب على صدرها، فطمأنها أنَّه بخير وهو يمسك كتفه بيد وجنبه بالأخرى إثر الضربات.

استيقظ شادي متشائمًا من السنة كلها، منتظرًا المزيد من اللعنات غير معروفة السبب. لم يكن شادي طفلًا متعبًا البتة. لم يكن للبدر حجّةً ليعاقبه عليها، والحق يُقال. مشَّط شعره، ورتَّب سريره، وأخذ ملابسه المفرودة وارتداها بعد أن لمَّع حذاءه، ثم ارتدى قبعته التي لم تُظهر سوى غُرَّة شقراء ناعمة على جبينه. فتح شادي الباب، فشمَّ رائحة الخبز الشهي الذي يصنعه المخبز المجاور، كأنَّ رائحة الخبز هي رائحة سارة.

مشى بعض الخطوات خارج البيت ليقابل سارة التي كانت مبتهجة بالسنة الجديدة. تقابلت أعينهما، فعقفت سارة حاجبيها عندما صادفت ابتسامة شادي باهتة. عندها، شدَّت غصن الوردة من جيب حقيبتها وأعطتها له دون أن تسأله عن سبب ضيقه. أعطته سارة الوردة، فارتفع بدرٌ كبير في السماء، كما لو كانت الوردة هي بذرة هذا البدر.

بدرٌ في الصباح! أشار شادي نحو البدر بخوف، فالتفتت سارة نحو البدر ثم نظرت إلى شادي بابتسامة خفيفة وأومأت بجفنيها. أمسكت يده ووضعت فيها الوردة، ثم شدّته ليتبعها. مشت به إلى كوخ وراء تبَّة صغيرة كان شادي يظنها آخر الدنيا، أو بدايتها.

دقَّت سارة باب الكوخ، ففتح لها كنغر. أشار لهما بالدخول. تراجع شادي، فدفعته سارة. ظنَّ شادي أنَّ هذا كوخ الذئب الذي يحكون عنه في الحكايات، ولكنه متنكر في صورة كنغر، وأنَّ سارة هي جاسوسته التي تجلب له ضحاياه.

سارة فتاةٌ أقوى من أن تكون طفلة ذات ثمانِ سنوات، تصلح لأن تكون جاسوسة فضائية في قصة خيالية. شعرها الأسود الأملس الطويل، المسدل والمقصوص بعناية، وخاصةً غُرتها التي تغطي جبهتها، وعيناها الواسعتان البنفسجيتان، وقامتها الطويلة يوحون أنَّ مصمم رسوم متحركة يابانية هو من رسمها.

توازن شادي بعد دفعة سارة، ورفع رأسه فشمَّ رائحة الخبز المعهودة في الحي تسيل من خيوط الكروشيه البنية الفاتحة التي غزلت وفرشت كوخ الكنغر بأكمله حتى السقف، وإبريق الشاي، والأطباق. فتح الكنغر لهما جيبه. اقترب شادي من جيبه، فشمَّ رائحة المخبوزات

التي بداخله. مدَّ شادي يده ليأخذ واحدة، فلمَّ الكنغر جيبه ومال ليبعده عن يد شادي وقال:"إذا أخذت مني هدية، فسيغضب بابا نويل عليك. قد لا تتحمل عقابه". مدّ شادي يده وشدّ جيب الكنغر برفق وأخذ واحدة من المخبوزات وسأل الكنغر غير مبالٍ: "ولماذا يغضب بابا نويل؟".

الكنغر: يغار مني. يخاف أن يعرفني الأطفال، فيُمحى اسمه من أذهانهم. لا تخلو النوايا الحسنة من شائبةٍ ما.

شادي: وأنت نواياك سليمة؟

الكنغر: لا أعلم، أو بالأحرى لست متأكدًا.

شادي: ولكن إذا عاقب بابا نويل الأطفال سيكرهونه بالتأكيد.

الكنغر: الغيرة تعمي يا بُني. وربما لو كنت مكانه، لفعلت مثله. تعالا معي.

خرجوا جميعهم من بيت الكنغر؛ فوجدا بدر الصباح هذا يترجَّل عن سمائه ويهبط إلى الأرض. عندما اقترب، اكتشف شادي أنَّه فقاعة بيضاء. فتح الكنغر باب الفقاعة البيضاء وانحنى مشيرًا لهما أن يدخلا.

دخل شادي بقدمٍ خائفة متوجسة، لمس بها سطح الفقاعة من الداخل، الّذي تحرّك بمجرد أن لمسته قدم شادي. كاد شادي أن يتراجع قبل أن تسنده سارة وتدخل معه الفقاعة التي تقلقلت بشدة بوقوعهما فيها وأُغلق بابها، ليرتفع البدر مرة أخرى. استقر البدر من داخله، فاعتدل شادي وسارة في جلستهما. شاهدا الحي من البدر الشفاف من الداخل والأبيض من الخارج. أصبحا كبيرين، لأوَّل مرة يريان الحياة من علي. رأيا مبنى مدرستهما. فجأةً وجد شادي نفسه مع سارة في المدرسة. عدد الطلبة في الملعب قليل، يدل على دخولهم الفصول وبدء الحصة الأول، ويُنذر بعقاب من المدرس. كانت ابتسامة الثقة لا تفارق وجه سارة. دخلا الفصل، فوجداه خاليًا. نظر شادي إلى ساعة الفصل، فوجد أنَّ الساعة ما زالت السابعة صباحًا. رأي شادي على وجه سارة تعبير"أرأيت؟". عجب شادي لأنه خرج من البيت في الساعة السابعة والنصف.

كانت صداقة شادي وسارة صداقة صامتة. قبل أن تبدأ الحصص، يجلسان في الملعب، هو يرسم وهي تقرأ. لم يتحدثا اليوم عما حدث، ولكن شادي رسم وردة سارة.

في نهاية اليوم الدراسي، لم ينتبه شادي إلى أيَّة معلومة قالها المدرسون اليوم. كان يستعيد ما حدث في الصباح. لم ينتبه أيٌ من المعلمين لشرود شادي، فنباهته كانت

تجعلهم يأمنون جانب شروده وبلادته. خرج شادي وسارة من المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، وهما يأكلان الآيس كريم في هذا الجو البارد.

في منتصف الطريق المكسو بالثلج، سمعا صوت هدير قوي للهواء. التفتا، فوجدا عربة بابا نويل الغاضب تجرها آيلٌ كالثيران. ضرب بابا نويل كتف شادي بكرباجه الذي يحفّز به الآيل، ثم طعن قرن الآيل جنب شادي، ثم ارتفع وطار بابا نويل بآيله وابتعد. تألّم شادي بشدة. سندته سارة، ثم أمسكت بكتفه، فصرخ من الألم. نظرت إلى جنبه، فلم تجد أثر لقرن الآيل. تعجَّبت وسألت: "كيف لم يظهر أثر طعنة الآيل عليك؟". فسألها: "وكيف عاقبني بابا نويل دون أن يعاقبك معي؟". أبعدت خصلات غُرَّتها عن جبهتها، فظهر أثر ندبة كبيرة في جبهتها كأنها أثر رصاصة اخترق جمجمتها وفجَّرت مخها من قبل. قالت: "هذه عضَّة الآيل في رأس السنة الماضية". مع الوقت، خفَّ ألم شادي حتى تخلَّص منه تمامًا بوصوله إلى البيت.
علم شادي أن هذا تأويل ما رأى في حلمه. أخذ شادي هدية بابا نويل وغلَّفها ووضعها عند بيت أحد الأطفال الفقراء في الحي، بعد أن لصق فوقها ورقة كتب عليها: "إمضاء: الكنغر".

❊ ❊ ❊

سحابة وردية مُعبَّئة في كيس

كان مفترشًا سحابته الوردية التي ترش الندى على الورد كل يوم في الصباح، التي لا تفنى ولا تستحدث من عدم. عندما سمع مزامير بائعي غزل البنات آتية همسًا من الأرض، استيقظ.

علم أن الوقت تأخَّر، وأنَّ الملائكة أكلت معه أرزًا حتى شبعت. غسل وجهه بالمياه الوردية المُسَكَّرة التي تجمَّعت في السحابة، ثم أخذ يقطف منها قطع غزل البنات ويضعها في أكياس صغيرة. بعد أن ملأ الأكياس، أخرج من جيبه منفاخه الصغير لينفخها. ربط الأكياس في عامود القصب، ووضع المزمار في جانب فمه. لم يتبقَّ من سحابته سوى قطعة يجلس فوقها.

obeikandl.com

قال: "استعنَّا على الشقاء بالله"، وقفز من فوق السحابة. هبط هبوطًا بطيئًا؛ فأكياس غزل البنات بعد نفخها تقوم مقام المنطاد.

ألقى التحية أثناء نزوله على البنات اللاتي يغزلن السحاب، فلم يرددن التحية، فكُن يهمسن برسائل الموتى والملائكة في كل قطعة يغزلنها. لولا أنَّهن فتيات صغيرات لتمنى أن يكُنَّ له حورًا عين. كانت بوادر الجمال تبدو عليهن، يرتدين ثيابًا صوفية وردية مغزولة بإبرة غزل البنات نفسها. يبدو أنَّهن أيضًا غُزِلن بالإبرة نفسها. شعورهن طويلة تختلف ألوانها باختلاف ألوان الطيف، وتحيط بملامحهن الطفولية الرقيقة، المختلفة باختلاف أجناس البشر. كان يعلم أنَّه سيعود ليجد سحابته غُزِلت من جديد.

...

سمعت مزماره من بعيد، فلم أقاوم. كثرت زياراتي لطبيب الأسنان، الذي زادني على توبيخ أمي توبيخًا، وأمرًا بأن أقلل من أكل الحلويات. تقف أمي مثل الحارس الآمر أمامي في الحمام وأنا أغسل أسناني، وهي تنبّهني بأن أغسل الجانب الأيمن جيدًا وكذلك الأيسر، وتُشرف على تلك العملية التي لا تُجدي نفعًا أمام حبي لغزل البنات. أسمع المزمار المميز، فأمشي

نحو بائع الغزل كالمسحورة. يبدو بائعًا جائلًا عاديًا للغاية، ملابسه متسخة ومهترئة بعض الشيء، أسمر وشعره أكرت. يمد شفته السفلية وهو يتحدث، فيخرج الكلام أعوجًا. أغلب مخارج حروفه خاطئة، ولو كان زميلًا لنا في الفصل، لوبَّخته مُعلّمة اللغة العربية كل حصة.

أطلب منه كيسًا كعادتي، وأعطيه جنيهًا. استخدم أسناني المريضة في فك عقدة الكيس. أقطع من الغزل وأطعمه، فيمتزج بخلايا رأسي ويسري سكره في قلبي، مثل القطن الذي يستخدمه طبيب الأسنان عندما يخلع لي ضرسًا ليسد به جرحي، فتلتصق شعريات القطن بملابسي. أسمع رسالة جدتي في القطعة الثانية: "سمعت أخبارًا عن حصولك على الدرجة النهائية في الحساب. دُمت متفوقة. سأدعو الله أن يشفي أسنانك اللؤلؤ حتى تأكلين غزل البنات، فائتنس بسماعك صوتي. كوني بخير".

لا تسألوني كيف أسمع صوتها، ربما بعثت لي في قطع السحاب رسائلها. كل ما أعلمه عنها أنَّها صعدت فوق عند ربنا. لم أحكِ لأمي، فإنها لن تصدق أني أأكل غزل البنات لهذا السبب.

اشتاق إلى جدتي كثيرًا. لماذا لا أبعث لها رسالةً لأخبرها بذلك؟ عدت إلى مكان بائع غزل البنات، فوجدته يبتعد. أجري لكي ألحق بخطواته الواسعة.

- عمو عمو. ممكن أطلب منك طلب؟

- أؤمري يا عسل.

- أنت ملاك، صح؟

- هاه.

- أنا عارفة. ممكن تقول لتيتة إنها وحشتني أوي. أنا سمعت الرسالة بتاعتها.

- مممم. حاضر.

- شكرًا يا عمو، ربنا يخليك.

لا أعلم إذا كان سيصدق في وعده لي أم لا، ولكني سأنتظر رسالتها القادمة عندما يأتي الغد.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

"

ستّو الحاجَّة"

شالها تقرَّح. شالٌ يغطي عباءة سوداء قديمة ولكنها سليمة ونظيفة. شالٌ تفرده على الرصيف حين تتعب من الوقوف عند إشارة المرور.

...

يعرفني الأطفال باسم "ستّو الحاجَّة". هذا هو اسمي الذي اختاره لي زملائي في المدرسة. نعم، أنا متعلم. لم يكن لدي أي أنشطة أمارسها بعاهتي تلك. هل كانوا ينتظرون مني أن أشاركهم لعب كرة القدم مثلًا؟

...

obeikan.com

لم يكن لدى أختي ميراثًا سوى الأعمال اليدوية التي علّمتها لها أمي. عقلها لم يتسع لشيء سوى ذلك وفقر أمي لم يتسع لإلحاقها بمدرسة التربية الفكرية.

ماتت أمي وتركتني لأختي وتركت أختي لي، فصرت لها عقلًا وصارت لي قدمًا. في الحقيقة كان فضلها على أكبر. أختي مثل طفلة مهذبة، تدبّر شئونها بنفسها، لا تحتاج سوى شخص راشد يتواجد معها، حتى أنها أعطتني مقومات الرشد. علمتني أختي داليا الكروشيه والتريكو، ولكني وجدت نفسي في الكروشيه أكثر.

عندما كانت أمي على قيد الحياة ورأتني وأنا أنسج الخيط بالإبرة، ثارت بشدة وأخبرتني أنَّ هذه الأعمال لا تناسب رجلًا مثلي، رغم أنّي كنت لم أخطُ عتبة الرجولة بعد. علمتني داليا لأنها لم تضع اعتبارًا للمجتمع مثل أمي، لم تعلمني لأكسب بها عيشي، ولكن من باب المشاركة. انتصرت لمنطق أختي، فيبدو أن أمي لم تنتبه لكوني أنا وأختي من أصحاب العاهات الذين يدعونا المجتمع بـ"ذوي احتياجات خاصة" ولا يعاملنا الناس على هذا الأساس.

...

أجمع ما تصنعه داليا كل يوم، وآخذ بكرات الخيط وأستكمل صنعتي في الشارع. أعلم أنَّ ذلك قد يثير السخرية، ولكنّي اعتدتها منذ تعلمت الصنعة في الإعدادية. كما أن السخرية تعني انتباه الأنظار إليك؛ لذا هي وسيلة دعاية لا يستهان بها.

أحيانًا يطلب مني الأطفال أن أعلّمهم، فأفعل. الأطفال فقط هم من يستعدون للجلوس بجوار رجل قعيد على الرصيف وتعلّم الكروشيه منه. منهم فقراء، يتعلمون ليكسبوا قوت يومهم أو يصنعوا هدية عيد الأم أو ملابس جديدة للعيد. ليسوا جميعهم جادين، فمنهم من يمل من أول محاولة ويتركني حتى بدون كلمة شكر، ومنهم من يتحلّقون حول طفل جاد من باب الفضول وينفضون بعد دقائق. أشعر وقتها أنّي حاوٍ. ومنهم من يحاول كثيرًا ويفشل فييأس، وقلة منهم من يستكمل الطريق ويُريني كل فترة آخر إنجازاته. قلة يعدّون على أصابع اليد الواحدة. أشعر وقتها أنّي بطلٌ خارقٌ يفعل ما لم يستطع العالم أن يفعل.

بمنقاري الصغير، وبدقة جرَّاح، أنتقي شريانًا من فوضى الصوف لأزوّجه شريانًا أبهج منه لونًا، فتضخ فيهما وفي أقرانهما دماء بشرية عندما تتزيَّن الجميلات بحقائب كروشيه، أو يكسون كراسي بيت دفئًا، أو يطعمون طفلًا، أو يربتن على أكتاف عزيزتي من

البرد، ويخشون على عباءتها من الهواء أن يمزقها بفعل الزمن أو يفعلها ماء مسكها الذي لم أشمه ولن أشمَّه.

...

صباها لا يتناسب مع عدد أبنائها. لديها أربعة أطفال لا يفصل بينهم سوى عام: آية، وعمر، وأحمد، وعلي، كأنَّ والدهم عاش لينجبهم ويتركهم لأمهم. حملٌ ثقيلٌ عليها بحق، وأنا أعلم أنَّها تنظّف البيوت، وتعمل في محل ملابس، وأحيانًا تعمل في محل كوافير، وعندما تُسد كل الأبواب في وجهها تبيع مناديل. باختصار هي تجسيدٌ حيٌ لمهنة "على باب الله". لم يكسر حدادها سوى طرحة وشال بنفس اللون البنفسجي ترتديهما دومًا، يضفيان وردية على وجهها الشاحب من التعب، وكحل يحدد عينين خضراوين ثارا على ملامحها الريفية التي مسها جمال أحرقته الشمس وسرح إليه الزمن.

...

كان يومًا ماطرًا في مارس في موعد خروج طلبة المدارس. أحب المطر وأحب رائحته. لا أرحل قبل أن تصرف السيارات بعجلاتها مياه المطر التي تقتل الشوارع غرقًا. لا فائدة من محاولة الهرب السريعة. حاولت من قبل ولكني وقعت على الأرض في ماء

المطر، نتيجة تدافع البشر وازدحام الشوارع. أجلس أسفل الكوبري عادةً، فيحميني من كل عوامل الجو. اختبأ عمر من المطر تحت الكوبري بجانبي. دخل عمر قلبي من أول لحظة.

عمر رجل في هيئة طفل، له صوت عريض لا يتناسب مع سنواته الثماني. عرفت شكل أبيه من وجهه، فهو يمتلك ملامح نوبية لا تشبه ملامح أمه. لم يجد عمر أمه، فلم يجزع ولم يبكِ. عندما سألته عن أهله، أجاب بهدوء واطمئنان أن أمه تبيع مناديل عند إشارة المرور، وإنه لا يجدها ولكنه يعلم إنها بالتأكيد تختبئ من المطر. عندما وجدته يشعر بالبرد، غزلت له طاقية بسرعة. ألبستها له، فشكرني بابتسامة واسعة شديدة البياض بالنسبة لبشرته. عندما كف المطر، شكرني ورحل.

في الصباح التالي، مر على وهو ذاهبٌ للمدرسة ليعيد لي الطاقية، ألححت أن يحتفظ بها ولكنه رفض بشدة. قد تكون أمّه وبخته على أخذه هدية من غريب مثلي. عقدت معه صفقة أن يحتفظ بالطاقية مقابل أن يشتري لي خيوط. كانت وسيلة لإرضائه ليس إلا. وافق، وفي نفس اليوم أتى لي بالخيوط، ولم يستعِد الطاقية إلا عندما أدّى مهمته. سألته ما إذا كان سيشتري لأمه هدية في عيد الأم، فأخبرني أنه مازال يفكر في هدية. قال إنه يدخر عشر جنيهات. اقترحت عليه أن أصنع لها شالًا

بالعشر جنيهات، فوافق. تناقشنا حول اللون الذي سأستخدمه في صنع الشال، فأختار اللون البنفسجي لأنَّ أمه تحبه.

تطوَّع لشراء الخيط ليتأكَّد من درجة اللون المطلوب، بعد أن شرحت له نوع الخيط الذي أحتاجه. كان أصحاب المحلات يعرفوني، وكنت أعطيهم ثمن بضائعهم جملةً؛ لذا أخبرته أن يعطيني العشرة جنيهات وأنا سأتفق مع الباعة. غزلت مع الشال حبي لها. كنت أوزّع وقتي بين الشال وباقي الهدايا.

في يوم عيد الأم، رأيتها ترتدي الشال. كان كما أردته، من غرز محكمة ليدفئها، ومن خيط ذي ملمس ناعم وخفيف، فكان يسري مع النسيم كلما تحركت، كأنَّما روحها هي التي تحركه. لا بأس أن تفرده على الرصيف، فلتفترش قلبي إن أرادت.

ليس لي أيَّة أغراض لا خبيثة ولا شريفة، ولكن المحبة تحكم.

❊ ❊ ❊

عجز

بكى طفلٌ في الشارع ليلة أمس، فطرأت في مخي فكرة. لا أعلم أين أخفى "الزفت" سيد مفكرتي. يغلبني النوم، قبل أن أصيح باسمه وأصرخ في وجهه. أصحو وقد مُحيت الفكرة من رأسي تمامًا؛ فأصرخ باسمه. يأتيني مرتعدًا، فأحمّله مسؤولية ضياع الفكرة وضياع المفكرة. ماذا أفعل بالمفكرة وأنا عاجز عن الكتابة؟ يبدو أني لم أفِق من نومي بعد. يحاول أن يذكّرني بأني لن أستطيع الكتابة، فآمره بألا يبرر خطأه وبأن ينصرف.

obeikan.com

أفكّر في طريقة لتدوين أفكاري وسط النوم غير الكتابة. هل أضع تسجيلًا قريبًا مني دومًا حتى أسجّل صوتي إذا جاءتني فكرة؟ لا أظنها فكرة صائبة. أنادي سيدًا.

- تعرف تقرا وتكتب؟

- لا يا بيه.

- تبقى تروح تتعلّم القراية والكتابة.

- امتى بس يا بـ..

- مش عايز مناقشة.

يومئ سيد مرتعشًا. لا أعلم لمَ يخاف مني هذا الولد. ضربة واحدة من كفه كافية لقتلي. صدق المثل: "أجسام البغال وعقول العصافير"؟ هو بغلٌ بمعنى الكلمة، أنفه الكبيرة وشفتاه المتدليتان وعينه المحملقة الناعسة الفاتحة يوحون بالغباء الشديد. لا يوجد إنسانٌ كاملٌ على كل حال. كنت أحتاج لشخص ضخم الجثة حتى يستطيع أن يعتني بي. مع ذلك، يجب معاملته بحزم. صنف يخاف.

ولكن غبي كهذا سيحتاج إلى وقت طويل ليتعلَّم الكتابة. سأجعله ينام قريبًا مني، فأناديه ليشغّل التسجيل إذا جاءتني فكرة أثناء النوم. ولكن المشكلة الآن في الفكرة

obeikan.com

التي ضاعت. ملعونة تلك الأفكار ومتمنّعة، لا تأتيك إلا بإرادتها، وإذا بحثت عنها طارت. عليك أن تتفرّغَ لها مثل زوجة جميلة، وألا ترُدَّها إذا جاءتك حتَّى لو كنت في أسوأ الظروف، حتى لو كان أقرب الناس يحتاجونك. لم تكن زوجتي جميلة بجمال الأفكار. ليس للأفكار بنات، ولكن قد تكون هي نفسها حور عين.

آه تذكرت. بكى طفل وأنا نائم، فطرأت الفكرة. جميل، قطعنا نصف الطريق. ما هي الفكرة إذن؟

عندما بكى الطفل، كدت أجري نحو النافذة أو قُل أزحف. ربما أنقذني النوم. لم يكن صوت بكاء الأطفال يخلع قلبي أبدًا. ولكن شعرت أن هذا البكاء زلزل البناية وزلزل سريري. لماذا أتعاطف مع الأطفال وأنا مشلول؟ لم تخطر ببالي فكرة أن أنقذ طفل من قبل.

هل كنت مثلًا أريد أن أكتب عن رجل عاجز تحوّل إلى سوبرمان وأنقذ طفلًا من واقعة قتل أو اختطاف؟ فكرة ساذجة. تذكرت. كان لأم كلثوم دور في الفكرة. لها أغنية دارت ببالي للحظات وقتها وأظن أنني حلمت بها. ولكن ما علاقة أم كلثوم بالأطفال؟ كانت عفاف راضي أولى بأن أحلم بها. ربما كانت تغني أم كلثوم "وصفولي الصبر". هل تنطبق هذه الأغنية على طفل؟ ربما تغني له أمه الأغنية، أو تغنيها لنفسها. الحمد لله، أمسكنا بأول

الخيط. أنادي سيدًا ليشغّل المسجّل. يأتيني متعجلًا واجلًا، فآمره بحزم أن يغلق الباب وألا يدخل مهما كانت الأسباب.

ما الذي يجعل الأم تغني "وصفولي الصبر" لابنها؟ هل هي زوجة لرجل لا يصلح لشيء يرمي كل الحمل عليها؟ الأفكار متحجرة في شرايين مخي مثل الجلطة التي سلبتني القوة. يا للمأساة، هل سأعجز تمامًا؟ لا يمكن، فعقلي هو الجزء الوحيد الذي يعمل بجسمي. لو لم تمدّني الأفكار بقبلة الحياة، لصرت جثةً في قبر. تدمع عيني. أستجدي الأفكار مرة أخرى. فلنحارب المعاناة بالكتابة.

لم تطِق زوجتي محاربتي للمعاناة بالكتابة، وانفصلنا. احتقرتني حين كتبت قصة ابننا. قلت لها إنَّ الكتابة هي الشيء الوحيد الذي يحررني من عجزي، فقالت إنَّ العجز لمن يبالي. لم أعترف وقتها برمي الحمل كله عليها، ولكنَّها الأم. ليس لي ذنب في حب ابني لي، وليس لي ذنبٌ في أني رجل موهوب، وليس لي ذنب في أنَّ ابني ورث رهافة الحس مني. كنت أبًا حنونًا، ولكن لدقائق ثم أبتعد لأهتم بموهبتي. كان ابني يحبني لدرجة يصعب عليَّ فيها أن أبادله القدر نفسه من الحب. مراهق في الثانية عشرة من عمره يهتم بأبيه إلى هذا الحد، وليس له أيٌ من اهتمامات أقرانه. مرض بحبي،

أو هكذا تقول زوجتي، وكانت تُلحُّ على أن أقتطع من وقتي وأعطيه. بدأ سلوكه يختل.

كنت أعود إلى البيت متأخرًا، فأجده في مكتبي جالسًا على الأرض، وحوله أوراقي، يمثّل لأمه مسرحية كتبتها، أو يقرأ قصة لها. كان موهوبًا وكان عليها أن تراعي موهبته. يومًا ما قرأ قصة قتل وطعن نفسه بمقص كان يضعه في جيبه، ومات. لم يكن فعلًا اعتباطيًا إذًا.

فسّرتها في قصتي على إنها كانت رغبة انتحارية مسبقة، وفسرتها زوجتي على إنها رغبة في لفت نظر أبيه. فكرة غبية للفت النظر. لن يراني وأنا ملفوت النظر وقتها. وقتها أصبت بجلطة وبقت زوجتي بجانبي، ولكنها لم تحتملني عندما كتبت القصة.

لماذا تأتي هذه القصة في بالي الآن؟ هل تفتح الأفكار لي دفاتري القديمة الملوَّثة؟ وهل القصة غادرت بالي من الأساس؟ وهل هي مجرَّد قصة؟

هل تقصد الأفكار أنني مثل زوج السيدة التي تغني "وصفولي الصبر"؟ هل أقصد أنا "وصفولي الصبر"، أم أقصد "للصبر حدود"؟ فأين "لياليا الحلوة" تلك التي في كل مكان؟

حبل الأفكار تشابك في رأسي. فلأسترخ قليلًا. تسري الدموع من عيني. لعل الأفكار تسري هكَذا. أشعر بأن كل الدم يتسرّب من جسدي. إنه موت مريح. ليس أمامي سوى وداع "سيد". أحب سيدًا لإنَّه يشعرني بقوتي. سأناديه لأوبخه لتكون آخر لحظاتي لحظة قوة. لا يخرج صوتي من حلقي. الصوت حتى لا يبلغ مخي. يبدو أنَّه الموت.

...

الأستاذ طبعه سيء والعمل معه ممل لكنه مريح. أنا أخاف منه، بل أرتعد. سبحان من أعطاه تلك الهيبة، رغم أنه رجل عاجز عن خدمة نفسه. ربما شعره الأبيض، وملامحه الدقيقة، وملابسه الكحلية التي تشبه زي قبطان هم الذين يُكسبونه هذا الوقار، حتَّى إن هذا الوقار لا يسقط بتحميمه ولا بتغيير ملابسه.

أنتظر اللحظة التي يطلب مني فيها ألَّا أدخل عليه لأي سبب لأقضي الوقت في المطبخ وأشاهد أفلامًا إباحية أعطاها لي أصدقائي على الهاتف المحمول. صنع الأكل لا يأخذ الكثير من الوقت خاصةً وأنَّ الأستاذ لا يأكل الكثير. يبتلعني الفيلم الذي شاهدته بعد طهو الطعام، حتى أنَّ الشمس صارت رمادًا، والضوء خفت في منور العمارة قبل أن تُضاء المصابيح الكهربائية.

لـم ينـادني سـيدي حتـى الآن. الأمـر يـدعو للقلـق. هـل أطمـئن عليـه؟ هل انـدمج فـي الكتابـة إلـى هذا الحـد؟ ألا يريد أن يشرب؟ آهٍ لو مات. قد يتهمني الجيران بقتله. لـو دخلـت عليـه الآن، لاستشـاط غضـبًا. أقتـرب مـن بـاب غرفتـه قليلًا، فـلا أسـمع شـيئًا، كـأنَّ الغرفـة خاليـة. هـل أدخل؟ كلَّا، سأنتظر بجوار الغرفة، حتَّى ينادي.

❊ ❊ ❊

استدراراً لعطف اللبن

أفيق من النوم على يد صغيرة تشد طرحتي. إنها يد طفلي. كدت أموت من الرعب. يبدو أنَّني كنت أحلم. كانت أمي تقع في بئر وتمسك بآخر قشة: طرحتي.

ماذا تريد الآن يا بني؟ ألن تتعاون مع أمك ولو لمرة في موقفٍ عصيبٍ كهذا؟ على كل حال، أنت أيقظتني من حلم مزعج، والنوم أغفل عيني عن بكائي. الحمد لله على أنَّ ابني كان نائمًا وأنا أبكي. رغم أنه غير متعاون ولكنه دومًا متضامن مع أمه، وما أكثر بكائي وبكائه. ما إن يرى دموعي حتى ينفجر في صراخ قوي. أظن أنه يشعر وقتها بعدم الأمان، فبماذا تحميه هذه الباكية الضعيفة؟

obeikan.com

لكل طفل شفرة بكاء، لا يفهمها أحد سوى أمه. أعرف هذه الزنَّة البسيطة التي تعني أن صغيري جائع. إنه هدوء ما قبل العاصفة. أبحث عن زجاجة الإرضاع (الببرونة) في حقيبتي، فلا أجدها. أنبش فيما بداخلها جيدًا، فلا أجد شيئًا. أسند طفلي برسغي وأمسك الحقيبة بقوة حتى لا تنفرط محتوياتها على الأرض. يبدو أنَّني نسيتها. نعم، تذكرت. كانت في حوض المطبخ في انتظار الغسيل.

آه يا ربي، ماذا أفعل؟ عذرًا يا بني، انتظر قليلًا. إلى متى ينتظر؟ حتى أذهب إلى أمي واطمئن على صحتها؟ أنا حتى الآن لا أعلم ماذا أصابها. كل ما أبلغتني به أختي أنَّها أغشي عليها والأطباء الآن يجرون لها الفحوصات اللازمة في المستشفى. لا أظن أن اللبن سينزل من ثديي في ظل هذا التوتر. وكيف لي أن أُرضع صغيري أمام الناس هكذا؟ صحيحٌ أنا في عربة السيدات ولكنَّ ذلك لا يمنع الخجل.

يدخل العربة بائع جائل معه حقيبة. يقتحم العربة قبيل إغلاق الباب حتى لا يلحق به عسكري الشرطة الذي يقف على المحطة.

فعلًا، لم ينقص الوضع سوى رجل في العربة. بمجرد أن أُغلق الباب، حتى بدأ ينادي على بضاعته بصوت

مـزعج وفـم معـوج: "يـلا يـا أبـلاااا. يـلا يـا أفنـدياااا. المئوار السحرييييييييي...".

يلـتهم الصـداع رأسـي، والـدم ينحسـر فـي شـراييني كمـا انحسـر اللـبن. تـزداد زنّـة طفلـي بالتـدريج، ثـم تنفجـر ماسورة صـراخه فـي وجهـي. أؤرجحـه وأهدهده كعـادة الأمهـات، ولكنـي أعلـم أنـه لـن يسكت حتـى ينـال مطلبـه. الحمد لله أنك وُلِدت بهذا الإصـرار. يمر البـائع بجـانبي ويطلب مني أن أهدئ طفلي وأسكتّه، فانفجرت فيه.

- أنـا مـش فاهمـة يعنـي؟ أنـت معنـدكش دم. يعنـي مـش كفايـة كمـان مـش عارفـة أرضّـعه عشـان أنـت موجـود وكمان طالع لي تجعر لي بصوتك المقرف، وكمـان مش عاجبك؟

- جرى إيه يا ست؟

بدأت راكبات العربة تنضم لصفي ضد البائع.

- حرام عليك يا أخي. الست عايزة ترضَّع ابنها.

- دي عربية سيدات يا أستاذ. يعني تنزل المحطة الجاية.

- مش كفاية إننا سايبينك تسترزق وتاكل عيش؟

- خلاص يا ست منك ليها هنزل.

قامت السيدة التي تجلس في زاوية العربة من أجل أن أجلس لأرضع طفلي، ونزل البائع. لِمَ تضعني في هذا الموقف يا صغيري؟ لم يسبق لي أن أخرج ثديي من تحت ملابسي قبل اليوم. حاولت أن أستر جسدي بطرحتي. مص طفلي حلمتي بلهفة جائع، فلم يجد شيئًا. التهي بصدري قليلًا، ولكن هذا الوضع لن يدوم. أعلم أن التوتر واللبن لا يجتمعان. شعرت بعروق جبهتي وهي تنفر عندما صرخت في وجه البائع. كان وجهي ساخنًا والدموع تطفر من عيني. بدأ طفلي يعترض على عدم نزول لبن من صدري. مسك طرحتي وبدأ يشدها ويرفعها. يا صغيري، تعاون معي قليلًا. كن رجلًا ولا تفضح جسد أمك. أحاول ستر نفسي. أعلم إنَّه لا يحتمل الحر والجوع سويًا. أحاول حل المشكلة جذريًا. أمارس عادات النساء في التركيز في التفاصيل وانتقادها. أركّز مع الحناء التي تضعها الفتاة الجالسة في الكرسي المقابل على حاجبيها. كم هي سيئة؟ لون بشرتها لا يتناسب مع لون الحناء، وتلك التي تجلس على الأرض وتشغل الطريق. ألا تستطيع أن تقف قليلًا حتى تصل إلى محطتها؟

وفتاة أخرى تحكي لصديقتها شيئًا ولا تكف عن نغزها طوال الحكاية. أكره النغز الكثير واللمس المبالغ فيه، حتى أنّي...

يرن الهاتف، فأرفع وسطي عن مقعدي حتى أخرجه من جيبي. إنها أختي. استر يا رب. تبكي أختي بشدة. أمي ماتت! أشعر بنغز شديد في صدري، وأصرخ بصوت عالٍ. أصحو بفعل النغز. إنه صغيري ملَّ من صدري بعد أن شبع، فعض حلمتي. يفعلها كثيرًا، فأسنانه الآن تنمو. شكرًا يا صغيري لأنك أنقذتني من الكوابيس مرتين. هذه هي الرجولة.

❊ ❊ ❊

نقطة اللارجعة

يخيّم الإحساس بالذنب على المكان. المشاعر لا يمحوها الندم، فالندم نفسه يظل باقيًا ولو كان مختفيًا، ويظل حيًا ولو بدا ذابلًا. المشاعر لا تفنى إلا بالموت، بل أظن إنَّ المشاعر هي الشيء الوحيد الذي يحمله معه الميت إلى القبر. أتمنَّى ألَّا تحمل المرحومة أي مشاعر تجاهنا معها إلى القبر. ذلك هو عزائي الوحيد: إننا لم نعد نهمها في شيء.

التقى المعزون الذين لم يروا بعضهم منذ سنوات. دخلت برفقة صديقتي "نهال" غريبةً. وجوه أعرفها جيدًا، ولكنَّها فترت في عقلي. وجوه طلت أمام عيني كحلم بعيد مزعج. مرور الزمن في حد ذاته مزعج ومخيف.

obeikandl.com

عندما نستحضر السنون الماضية نشعر أننا واقفون على بساط سُحِب فجأة من تحت أقدامنا. أظن أنَّ ذلك هو التوأم البغيض للحنين، الذي يلتقي معه في نفس المكان.

لم أشعر بالحزن الشديد بوفاة معلمتي. هي فقط المفاجأة. أنا لم أكن مقرَّبة منها إلى هذه الدرجة. كل ما أحتاجه هو بعض الوقار في العزاء لتأدية الواجب. أوَّل من أطلَّت في عقلي عند سماع الخبر هي صديقتي المقرَّبة منها. كما توقعت عندما هاتفتها، كانت تبكي. أعلم أنَّ الإحساس بالفقد والذنب اجتمعا عليها. قاسية تلك الدنيا التي تلهينا عن أحبابنا. كان همي صديقتي ولم يكن المرحومة.

ذهبت إلى العزاء وأنا لا أعلم من سأعزي. أنا لا أعرف أحدًا من أقربائها. فلأعزي المدْرَسة. دخلت وسلَّمت على أخوات معلمتي، عرفتهن من الشبه بينهن وبينها: الجبهة العريضة نفسها، والأنف المضموم، والجسم الصغير الممشوق، واستطالة الوجه، ولكنَّهن اختلفن في الابتسامة. لم تكن هناك ابتسامة بالطبع، وأنا لم أرَ معلمتي إلَّا في مواقف سعيدة. كنْ يقفن في ثبات ووقار يتحدى الابتلاء.

أرى زميلات لم أقابلهن منذ سنوات، حتَّى إن أسماء ووجوه بعضهن اختلطت في ذهني للحظات مع وجوه

زميلاتي من الجامعة. للحظة أفكّر: ما الذي أتى بفلانة إلى هنا؟ من أين تعرف معلمتي؟ ثم أقول: لا هذه علَّانة وليست فلانة. أسلّم على معلماتي. بعضهن اختفى فجأة من المدرسة. بعض الطالبات والمعلمات اندهشت من بقائهن على قيد الحياة، أو بمعنى أصح أنَّهن موجودات في الدنيا. لا أعلم. شعرت أني في حلم يصحوا فيه الأموات. جلست في هدوء منتظرة أن يبدأ المقرئ، حتى ينتهي الرُبع وأعود إلى البيت.

غطَّت رائحة التراب على رائحة البُن المقدّم في العزاء. التراب غطّى على زهوة الربيع، وزاد الأسود الذي ترتديه الحاضرات كآبةً. ماتت الأستاذة هناء في أول الربيع، يوم عيد الأم، وولدت في الخريف. الموت ربيع جديد.

جلست بجانب مدرّسة أحبها، ولكنّي لم أتصوَّر أن أراها مجددًا. ما زالت كما هي بوجهها الضاحك، وعينيها وحاجبيها المكحلين، ونظَّارتها التي تضعها على طرف أنفها. بادرت هي بسؤالي عن أحوالي، وأعطتني رقم هاتفها معاتبةً إياي أنّي لا أسأل عنها.

أتى وفد من زميلات أصغر منّي سنًا. إحداهن تسكن بالقرب مني. هي صديقة قديمة من قبل أن ندخل المدرسة. كنّا نلعب سويًا بجوار منازلنا. الآن علاقتنا لا

تتعدى أننا نتحدّث سويًا عندما نرى بعضنا البعض مصادفةً. علمت أن أمها توفت. علمت بعد أن مرت على وفاتها أيام. علمت أمي من والدها، وهو صاحب محل قريب من منزلنا. عندما عرفت منه الخبر كان منهارًا، رغم مرور أيام. علَّمني والدي أنَّه من الأصول والدين ألَّا أعزّي شخصًا بعد ثلاثة أيام؛ حتَّى لا أجدد الأحزان. تجنَّبت أن أشتري شيئًا من والد صديقتي. لم أعزها. قابلت أختها ولم أعزها، وقابلتني صديقة أخبرتني بالخبر ومع ذلك قرَّرت ألَّا أعزيها. صمَّمت على موقفي. شعرت بأنَّه من الأنانية أن أجدد أحزانها وأفتأ جرحها لمجرد أن أؤدي واجبًا لن يعيد من ذهب. قابلتها هي في عزاء معلمتنا ورأيت في عينها نظرة حزن وانكسار في وجه صارم يزيد النظرة قوة رغم مرور فترة على وفاة والدتها. سلَّمت عليها؛ فردت سلامي بحزن وعتاب، أو هكذا تخيَّلت.

برَّرت لها في خيالي سبب عدم سؤالي عنها أو عزائي لها في تلك الفترة، فلم تقبل أعذاري.

جلست بجانبي طالبة قديمة لدى الأستاذة هناء، تكبرني بسنوات. قالت إنَّها تعرف وجوهنا ولكنَّ أشكالنا اختلفت مع الزمن. لا أعرف كيف علمت أننا من المدرسة وكيف تذكَّرتنا من الأساس. أخبرتني أنَّ الزمان جمعها بالمرحومة ثانيةً، فكانت تعمل مع الأستاذة هناء في

المدرسة التي عملت فيها قبل وفاتها. قالت إن الأستاذة سألت عنها عندما كانت في المستشفى ولكن قلبها لم يطاوعها، والوقت لم يسعها. جاءت دفعة جديدة من المعلمات. سلمنا عليهن وجلست أمامي معلمة أحبها، حاولت أن أكلمها ولكنها كانت لا تنظر في عيني. شعرت بأنَّها غاضبة مني. تخيلتها توبخني بشدتها المعهودة أني لا أسأل عنها.

بعد قليل، دخلت والدة صديقتي التي ماتت ونحن في المدرسة. لم أتخيَّل أنَّها تعرف الخبر. يبدو أنَّ صديقتي أخبرتها. حاولت أن أهنئها بعيد الأم وأخبرها بالأمس، ولكنَّها لم ترد. سلَّمت عليها وأجلستها مكاني. شعرت أني في عزاء ابنتها. وقتها لم أتمالك نفسي وخرجت لأبكي حتى انتهيت.

عدت ليبدأ المقرئ في الربع. انتظرت حتى انتهي الربع ورحلت.

❊ ❊ ❊

لكل حمامةٍ وليفٌ

أبكرت في صحوي كالمعتاد. وبعد طقوس استيقاظ تقليدية للغاية، من غسل الوجه والأسنان واستحمام سريع، فتحت الراديو الذي لا يتغيَّر مؤشره عن إذاعة القرآن الكريم.
في صوت القرآن سكينة وأمان. اعتدت أن أرمي القمامة في هذا الوقت الذي تنتظر فيه جارتنا المصعد مرتديةً الإسدال نفسه كلَّ يوم؛ فهي تنزل مع أولادها الصغار لانتظار حافلة المدرسة. يتسنَّى لي في تلك الثواني أن أقول لها كلمتين. أحيانًا ألاطف أولادها، وأسألهم عن أحوالهم في المدرسة، أو أسألها عن أحوالها، وأحيانًا أعلّق على حدث سياسي.

لا أحب السياسة، ولكنّي مضطرة؛ فالاهتمام بها يملأ فراغ العقل. في الحقيقة، كنت أعطّلها أحيانًا. كانت تمسك بالباب وتنتظر اللحظة التي أُنهي فيها كلامي لتستأذن وتركب المصعد. لم تكن تطرق بابي لنستكمل حديثنا. ربما كانت مشغولة أو لم يكن حديثي يروقها، ولكنها على كل حال كانت سيدة لطيفة لبقة.
للأسف، انتقلت إلى سكنٍ جديدٍ. صرت أنا الروح الوحيدة التي تسكن هذا الدور. عمومًا سكان البناية كلهم هادئون، ويصعب اقتحامهم. حتَّى زوجة حارس العمارة سيدة صامتة حتَّى إنَّها لا تبتسم. تمر كل يوم في الساعة التاسعة لأعطيها ورقةً بطلباتي التي يشتريها لي الحارس. ليس هناك داعٍ للطهو؛ فليس هناك من أطهو له. لديَّ قيودٌ كثيرةٌ على الأكل، تجعل كثيرًا من الأكلات محرَّمة، كما أنَّ وجبتي صغيرة. حلة أرز صغيرة وبعض الخضار المسلوق يكفيان لإشباعي لأيام. أغلب ما أطلبه من الحارس أدوية.

ضاعت تضحيات السنين. عندما دفعتني أمي إلى الزواج والموافقة على العريس المناسب، كان منطقها ألَّا أكون وحيدة في شيخوختي. ها أنا لم أوغل في الشيخوخة بعد، ولكني وحيدة. الزوج رحل والأبناء سافروا. حتى إنَّ زوجي كان رجلًا عاديًا، تزوَّج ليعيش مثلي. لم يترك حتَّى ذكريات ولم يزرني طيفه منذ وفاته. ضيَّعت هذا العمر في حياةٍ عاديةٍ وعملٍ تقليديٍ

لم أنل منه سوى معاشي الآن. فقدت صديقاتي بانشغالي ببيتي وأولادي. الميزة الوحيدة في حياتي أني لا أحتاج –ماديًا- إلى أحد؛ فمعاشي ومعاش زوجي يكفياننني. الحمد لله على كل شيء.

التليفزيون والتريكو هما الأنيس. حتَّى القراءة لم أعد أقوى عليها، فنظري ضعيف منذ شبابي، فماذا عن الشيخوخة؟ أحيانًا أتجوّل في الجوار، ولكن في آخر مرة، وقعت في الشارع. لا أعلم لماذا تصمم الأرصفة بهذا العلو.

صنعت لنفسي القهوة التي لا يمنعني عنها مرض. وأنا في المطبخ، أسمع صوتًا في المنور. كان شخصًا ما يخبط على سلك شبّاك المطبخ. سحبت سكينًا من الدرج، وفتحت الشبَّاك فلم أجد شيئًا.

أسرعت إلى جهاز الاتصال الداخلي وناديت الحارس. أمرته أن يدخل المنور وأن يرى ما إذا كان أحدٌ يتسلَّق المواسير. امتثل الحارس راضخًا. شددت قبضتي على السكين، ووقفت بين الجهاز والمطبخ. بعد دقائق، رد عليَّ الحارس بصوت ملول بأنَّ ليس هناك أحدٌ في المنور. قال إنه قد يكون صوت الحمام. جاء الرد عليه من الحمامة فورًا، وصاحت بصوتها بوضوح لتسمعني. اعتذرت له. في الحقيقة، يكون الحارس ضحية هلاوس

خوفي دومًا. دخلت المطبخ، فوجدت القهوة فارت، وأطفأت عين البوتاجاز. كنت سأموت اختناقًا بسبب خوفي من اللص.

أطفأت العين وحاولت أن أشب على أصابعي لكي أرى الحمامة. أختل توازني في أكثر من محاولة، حتى توصلت إلى أن الأمر أبسط من ذلك: مجرد الوقوف بزاوية معينة يمكنني من رؤية الحمامة. كم هي بديعة. لها غرة جنزاري بين عينيها. يظهر البيض من تحت جناحيها. يبدو أن من أحدث هذه الجلبة هو وليفها. فكرت في أن أربي حمامًا، فهو كائنٌ غير متعب ويمكنني أن أودعه همومي، بدلًا من قِطٍ يحتاج الكثير من الاعتناء.

اتصلت بالحارس ثانيةً. رد عليَّ بصوته المتململ. طلبت منه أن يشتري لي زوج حمام، وأن يصنع له قفصًا خشبيًا، ووعدته بـ"الحلاوة". بعد ساعة، عاد لي بكيس من البلاستيك به زوج مذبوح من الحمام معدٌ للطهو.

❊ ❊ ❊

شالك رفرف

يبدو أننا حسدنا الجو. وسط أيام من الجو المعتدل الذي لا يتصف به شهر يونيو يأتي يوم أصفر اللون يملأ الصدور برائحة التراب ويضرب الرؤوس بحرارته. وسط الركاب اللذين ينتظرون الميكروباص الذاهب إلى المكان المراد، ووسط السائقين اللذين يعبّئون ركابهم في سياراتهم، رأيتها تسكب فوق رأسها زجاجة مياه معدنية كاملة دون سابق إنذار أو تردد، مسحت وجهها بكفها ولم تبذل عناء النظر إلى وجوه الناس لرؤية رد فعلهم المندهش والذي وصل إلى حد إبداء السخرية والنصح أيضًا. كانت المياه تنسكب فوقها كما يغمر النور السيدة العذراء وسط الظلام.

obeikan.com

كانت تشبه "ستنا العذراء" كما تُرسم في الكنائس: طويلة وبيضاء، وابتسامتها راضية حانية تكسوها مسحة حزن، وعيناها عاديتان للغاية لدرجة ساحرة، تلك العيون التي تظن أنها طلت عليك آلاف المرات من وجوه كل من تعرفهم وتحبهم. عصرت طرحتها الخفيفة المتدلية فوق كتفها، وأخذت تبعد ملابسها التي التصقت قليلاً بجسمها. كانت ملابسها خفيفة: قميصها وطرحتها حتي بنطلون الصيادين الواسع الذي أصبح موضة ملابس الفتيات في الفترة الأخيرة. تبدلت ملامح الانتعاش التي كست وجهها الطفولي بملامح ندم وإحباط. دهس الميكروباص دهشة الناس لتصرف هذه الفتاة، واندفعوا بداخله قبل توقفه. لا أعلم كيف استطاعت أن تزاحمهم في الركوب بهذه القوة، بينما تأنيت منتظراً ركوب الجميع. وجد الراكبون فى جسدها الندي وباءاً يجب أن يبتعدوا عنه، حتى أن بعض الركاب المتبقين قرروا انتظار الميكروباص التالي، فكانت فرصتي للركوب وللجلوس بجانبها أيضاً ولسان حالي: "الفقي لما يسعد". كانت تنظر من النافذة منتعشة بالهواء على عكس الجميع. ثم بدأت فقرة تجميع الأجرة، وكنت أنا الضحية المسئولة عن هذه العملية. أعطتني عملة معدنية غير عابئة بأنها بللتها بيدها. دعكتُ العملة حتى أتعطر بمائها.

بدأ الميكروباص يسرع في الطريق غير المزدحم على غير العادة. طيّر الهواء طرحتها تجاهي، وأخذت تلملمها في خجل وعلى عجل كأب حازم يمنع ابنته من مقابلة حبيبها. أمسكتها بقوة ولكن طرحتها متمردة وشقية. كانت تحاول أن تتملص من قبضتها؛ فتلملمها بسرعة وعنف، وأنا أراقبها باهتمام. عندما تمكنت من طرحتها، نظرت سارحةً من النافذة. سرحت حتى أنها لم تلحظ أن طرحتها أفلتت تماماً وضربت وجهي مثل موجة منعشة لم أتفاداها. تركتها تلتصق بوجهي ولم تلتفت هي، يبدو أنها ملت الإمساك بها. رن هاتفها المحمول، أخرجته من حقيبتها، فأصبحت نغمته واضحة. أعرف هذه الأغنية وأحبها، كانت فيروز تشدو "شالك رفرف". كيف علمت هذه الفتاة بلسان حالي وجعلته نغمة هاتفها؟!

تضحك قائلةً: "ازيك يا لوزة.. إيه ده؟ استني ثانية".

...

أحب الجلوس بجوار النافذة حتى في يوم سيئ الطقس كهذا. أعلم أن وجهي الآن مطيّن في هذا اليوم الغابر، ولكني لا أهتم؛ فالمتعة الوحيدة بالنسبة لي في المواصلات هي الهواء الذي يندفع بداخل السيارة حتى لو كان محملاً بالتراب، ولكن صديقي الهواء الذي

أحببته خانني اليوم ووضعني في موقف محرج، عندما رأيت طرحتي التصقت بوجه الراكب المجاور. رأيتها تنحت وجهه وتظهر ابتسامة واسعة منتعشة أو كما يُقال عنها "من الأذن للأذن". كانت الطرحة لا تزال مبتلة قليلا، قطعت مكالمتي ولملمت طرحتي بسرعة واعتذرت له مرارًا على شقاوتها، لم يبدِ أي استياء، بل على العكس شكرني على لحظة الانتعاش التي منحته إياها. كان يرتدي ملابس شبابية بسيطة، تتناسب مع عفوية ابتسامته الواسعة، تحدداها وجنتاه البارزيتين، ويزيدها راحة حاجباه المتباعدان وجبهته العريضة التي يعلوها شعره الأكرت. حُفِرت ابتسامته الطفولية في طرحتي التي نسختها بدورها في رأسي. أكملت مكالمتي مع صديقتي وأبعدت مجال رؤيتي عنه. حكت لي صديقتي عن مشكلة قانونية لم أفهم أبعادها؛ فأنا لا أحب القانون، أو ربما إمساكي بالطرحة ورغبتي في عدم إفلاتها هما اللذان ألهياني عن حديثها، أو ربما شيءٌ آخر لا أعلمه أو أعلمه. لم يفتح الله عليّ في هذه القصة الطويلة العريضة إلا بالسؤال عمّ إذا كانت استعانت بمحام أم لا، فأخبرتني أن المحامين اللذين لجأت إليهم هم رأس المشكلة، فلا هم رحموها من المصاريف ولا وجدوا حلّا لها. أخبرتها أني سأسأل معارفي عن محامٍ جيد يمكنه أن يساعدها. ما إن أنهيت مكالمتي، حتي تكلّمَ جار الميكروباص معتذراً عن سماع بعض تفاصيل

المكالمة مؤكداً أنه لم يقصد التنصت. قال إنه يعمل في مكتب محام حاذق يستطيع أن يساعد صديقتي في أي مشكلة، وأعطاني تذكرة أوتوبيس كتب فوقها رقم هاتفه ورقم هاتف المكتب بخط صغير ومنمق، معتذرًا أنه ليس لديه أي ورقة في جيبه غير هذه التذكرة. ثم قال مترددًا: "خلي صاحبتك تكلم المكتب أو تكلمني أو حتى كلميني حضرتك، وفي كل الأحوال خير". ابتسم هو وأخذتُ أنا التذكرة من يده قبل أن يغلق الراكب الذي نزل محطته ومحطتي أنا أيضاً الباب، والذي طلبت منه أن ينتظر هو وسائق الميكروباص حتى أنزل المحطة. قمت بسرعة، فأزاح جاري لي الطريق وشكرته على عجل ونزلت. وأنا أنزل، لمحت ابتسامات بعض الركاب الخبيثة. لم يكن لائقاً مني أن آخذ منه التذكرة. وقفت ناظرةً إلى الاتجاه الذي انطلق فيه الميكروباص. عصفت رياح عكس هذا الاتجاه ونتشت من يدي تذكرته وهربت، نظرت إلى التذكرة بقلة حيلة، لم تمهلني الرياح واختفت التذكرة عن عيني تمامًا وهي تطير فى السماء. لو كنت جالسةً في الميكروباص الآن، لأفلتت تلك الرياح طرحتي من يدي مرةً أخرى، لتصفعه على وجهه لأنه لم يعطني ورقة أكبر أو أثقل.

❊ ❊ ❊

وجه من النوع المألوف

يزم عينيه، يطيل النظر إليّ، أبتسم عالمةً ما سيقول... من حين إلى آخر أقابل أحدهم يخبرني أني أشبه شخصًا ما يعرفه، أحيانًا أبادر أنا بسؤاله: "بتشبّه عليّا؟"، قد أشبه زميلة دراسة وأحيانًا قريبة، تستطيع أن تصفني بأني وجه من النوع "الحلوف" على حد تعبير عادل إمام..

قابلت يومًا ما أحدهم وكان مصرًّا أنه قابلني من قبل، وظل يعدد لي الأماكن والمواقف التي قد يكون رآني فيها، حتى بدا عليّ الضيق، فرحل قائلا: "مقصدتش أضايقك".

obeikandl.com

علـيّ أن أعتـرف أنـي أسـتفيد مـن تلـك المواقـف أحيانًـا، كونك مألوفًا لدى الناس يذلل لك الصعاب في الأغلب، يبدو أن وجهي لا يمكن أن يحملـه شخصًـا ذميمًـا، فكل من قابلتهم وألفوا وجهي تعاملوا معي بلطف بعدها.
مـاذا لـو كنـت أشـبه عـدوة أحـدهم أو حبيبـة أو صـديقة خائنة؟!

لكـن اليـوم كـان الأمـر غريبًـا للغايـة، أعـرف أن يـوم "الثلاثـاء" يتشـاءم منـه الكثيـر – وأنـا مـنهم-، ولكـن لـم أعرف من قبل أنه يوم غريب. الآن أعرف ما يجمع بين نجوم السينما والمطلوبين للعدالة!
عنـد مـدخل العمـارة، رأيـت زوجـة البـواب تحـدّق فـي وجهي كأنها لم ترني من قبل، ضيّقت عينيها، فألقيت عليها السلام، فردته بنغمة ملأها التعجب!

تجاهلت الأمر وعبرت الشارع، ما هذا الأدب الذي دهى سائقي السيارات؟! ثلاث سيارات أعبر من أمامها وتقف فجأة لأعبر، ولولا أن إحدى تلك السيارات كانت تقودها امرأة لظننت أن الله أمر بأن أكون فاتنة اليوم. رغم أنـي لم أتـأنق البتـة وأنـا ذاهبـة إلـى العمل، حتـى أنـي لـم أنتبـه إلى لون الطرحة التي أرتديها، إلا أنـي شعرت بثقة في النفس لا أشعر بها عادةً يوم الثلاثاء.

وقفت أنتظر الحافلة عند المحطة، ألقيت السلام على المنتظرين، فأهملني بعضهم، وردّ البعض الآخر التحية، ومن نظر إليّ منهم أطالوا النظر بشكل مريب.
التفت إليّ شاب واقف مع فتاة في سني، فأدار وجهه بعيدًا ، ثم التفت مرة أخرى فجأة وهو يكاد يكون فاغرًا فيه!
أظنني عدّلت ملابسي فخورة بإعجابه ونظرت إليه وفتاته بطرف عيني، - لم ألحظ ذلك إلا عندما استدعيت أحداث اليوم في وقتٍ لاحقٍ-، وقتها تعجبت من أن عينيه تغازلني ورفيقة طريقه -أو ربما تكون شريكة حياته- بجانبه، نظرت الفتاة إليه ثم أدارت وجهها إلى حيث يوجه نظره، فعقفت حاجبيها!

بدأ الأمر يوترني، فأدرت وجهي عنهما، فوجدت سيدة خمسينية تحدّق في وجهي، وكادت تفوتها حافلتها لولا أنها التفتت إليها وأخذت تجري وراءها ملوحةً للسائق لكي يقف. أتت حافلتي فصعدتها وأنا لا أفهم شيئًا! يأتيني الكمسري، فأفاجأ بأني لا أحمل أية فكّة. أعطيه خمسين جنيهًا وأنا أنظر إليه متوسلةً ألا يعاند في أن أعطيه ما ليس معي، نظر إلى الخمسين جنيه ممتعضًا ثم نظر إليّ وهو يهم بأن يطالبني بفكّة، ولكنه عاد خطوة إلى الوراء وكاد توازنه أن يختل وعلى وجهه تعبير دهشة تكاد تلامس الفزع، ثم قال لي أنه سيعطيني

كل ما لديه من فكة لأنني أشبه ابنته كثيرًا، أشبهها بالشكل الذي جعله يظن أني هي، لولا أنه تركها مريضة في المنزل. قال أنها تشبهه للغاية ولكنها أجمل بالطبع. دعوت لها بالشفاء بابتسامة تخفي حيرتي.
يا فتاح يا عليم، أرتاب من تلك الصباحات الغريبة!
أقف وراء امرأة ورجلين أمام باب الحافلة، فيلتفت الثلاثة إليّ، حتى أنهم لا ينزلون عندما تتوقف وتفتح بابها إلا عندما نبهتهم لذلك، ولسان حالي يقول:"وبعدين بقى!".

أنتظر المصعد في العمارة التي يقع بها مكتب الديكور الذي أعمل به. أتت فتاة ووقفت معي لتنتظر المصعد، أيقنت من شكل حجابها وملابسها وملامحها ولهجتها وهي تلقي السلام أنها سورية، كانت على قدرٍ كبير من الجمال والرقة، وعندما تطلعَت في وجهي، عقفت حاجبيها، وعندما لاحظتها، اعتذرت قائلةً إني أشبه أختها أو بالأحرى أختها التوأم أو ربما أشبهها هي. رددت قائلةً: "الله يكرم أصلك". لا أظن أني على هذا القدر من الجمال، لكن الجمال في عين الرائي، ركبت المصعد معها وأنا أتجنب النظر إلى وجهها المندهش وعينيها اللتين تجاهدان حتى لا تنظران إليّ ولكنهما تفشلان، حتى وصلت إلى الدور الذي يقع فيه عملي.

ضربت الجرس، ففتح لي الساعي، حملق في وجهي، فقلت له:"إيه؟ لسه شايف الوش ده في المراية الصبح؟".
قال بنبرة بطيئة تحتلها الدهشة: "انتي بتقولي فيها يا آنسة؟"

كنت أدرت ظهري له ومشيت خطوتين إلى الداخل، فأوقفني رده لثانية!
قطعت الطرقة حتى وصلت إلى مكتبي، وأنا أغطي وجهي بطرحتي، أعتاد زملائي على تصرفاتي المجنونة تلك.. سألتني صديقتي المقربة في المكتب: "مالك يا بنتي كفى الله الشر؟"، فرددت:"لا أبدًا".
ظلّت تحملق في وجهي، فقلت لها:
- "إيه مالك؟ طلعتي شبهي انتي كمان؟"
= "تصدقي احنا فعلًا شبه بعض قوي، الظاهر إننا كرفنا على بعض، بس أنا أحلى طبعًا.. يا بنتي ثبتي راسك".
- "بتعملي إيه؟"
= بظبط الطرحة في نضارتك.
وقتها علمت أن الله أمر لي بأن أصير مرآة.

❊ ❊ ❊

لما بدا يتثنى

حرّك الهواء الستائر التي تحجب البهو مثلما حرّك خصرها الذي يفوق جسمها في نحالته. تحجب الستائر البهو حجبًا مثيرًا مثلما يحجب اليشمك الشفاف وجهها. رقصت الستائر على رنة العود مثلما رقصت. داعبت أصابعي الستائر مثلما داعبها الهواء.

هل سيقطعون أصابعي –هي الأخرى- إذا داعبت شعرها الأحمر الناري؟ هل لم تنجح عملية البتر الأولى؟ عادةً ما يفكر القصر بنصفه السفلي. من يبتر القلب! ربما يجلدني كبير الحرس بكرباجه الصغير الذي يمسكه دائمًا، إذا رآني أتلصص.

obeikan.com

يسقط ضوء الثريا على جسدها المرمري، فيضيء نجمةً، على الرغم من علامات حمراء تدل على تعرضها للضرب. تفوح عن بعد من جسدها رائحة شجرة أعرفها. أتمنى أن أعلم ما يدور بقلبها عندما أراها تتمايل في بهجة راسمة ابتسامة على وجهها الحزين ثم تدور في شرك جسدها وتدمع عيناها التي يزيدها الدمع رمادية.

أنهت رقصتها ثم عادت إلى الحرملك. تتثاقل مشيتها بعد أن تنتهي من الرقص، مثل فراشة تدخل شرنقتها لتعود دودة.

....

أخرج إلى حديقة القصر، وأجلس تحت شجرة البرتقال، هذه الشجرة ليست كغيرها من الأشجار، لم أرَ قط في علوها واتساعها، حتى أني اختبأت فوقها يوم إخصائي، وأخذني عبق عطر ثمرها فنمت، فاكتشف كبير الحرس وجودي وهو يبحث عني مع زبانيته في الحديقة من ذراعي التي تدلت من مخبئي أثناء نومي، فربطني منها في هدوء في ساق فرسه وانطلق به، وانتهى اليوم بإخصائي، ومن يومها وأنا أحب أن أجلس تحتها رغم الذكرى السيئة، أشعر أنها أحد الفخاخ التي أحب أن أدخلها بإرادتي.

أنظر إليها وأقول: "كما لو كانت الشجرة التي أخرجت آدم من الجنة"، وسقطت منها برتقالة في يدي.

أتاني سيدي الأمير بجلبابه الأبيض. قال لي:"ظالم أنت، كيف تشبّه الداء بالدواء. كل منهما مقدّر لمهمة بأمر الله".

لا أعلم كيف أنجب سلطاننا السفيه هذا العارف. الغريب أني لم أره يتعامل مع ابنه هذا، حتى كدت أظن أنه شبح لا يراه أحد سواي لولا تعامل الحاشية معه. أقسم لي خادمه الخاص أنه لم يعطه قط جلبابه لكي يغسله، مع ذلك دومًا تفوح منه رائحة المسك. مرفهٌ هذا الخادم الذي لا يطلب منه سيده شيئًا، فكلما دخل عليه ليسأله عن رغبته في تناول الطعام، وجد لديه فاكهة لا يعلم من أين تأتيه. لابد أن مخلوقات أخرى تخدمه، لكننا لا نعلم هل هم ملائكة أم جان.

أما الأخ الكبير، فهو من عينة أبيه، حتى أنه يشبهه في حدة ملامحه وجسمه القوي وسواد حاجبيه وشاربه. طالما استعطف أبيه أن يمنحه "ليلى"، ولكنه رفض أملاً في أن يرضى عنه جنها الذي يمسها كلما اقترب منها، كانت تخيفه انتفاضات جسدها.. أحيانًا أجد العرافات يدخلن إلى حجرة السلطان وهي فيها، ربما هن من

يضربنها لإخراج الجن من جسدها دون جدوى. آه لو أستطيع أن أدخل وأمنعهن.

نظر سيدي العارف إلى البرتقالة وقال: "قلبك بين يديك، اعصره في جوف من تحب، لتنبت فيه الزهور". نظرت إلى البرتقالة وأنا لا أفهم شيئًا، نظرت إليه، فوجدته ابتعد في هدوء حتى نهاية الحديقة، كما لو كان قطعها ركضًا.

عدت إلى الحرملك وأنا أقذف البرتقالة في الهواء وألتقطها مرة أخرى، ليتني أملك قلبي مثلما أملك البرتقالة.

...

وصلت الحرملك فوجدته خاليًا، حتى سمعت صوت ارتطامات وأنين. دخلت فوجدت "ليلى" ملبوسة بالجن تنتفض على الأرض، جريت إليها ورفعت كتفها وضممت رأسها إلى صدري، لم أدرِ ماذا أفعل، فوجدت البرتقالة في يدي وتذكرت كلمات سيدي...

لا تكف أسنان "ليلى" اللؤلؤية عن الاصطكاك ببعضها البعض، لا تقوى يدي ولا قلبي على فتح فمها الوردي بالقوة، أمسكت البرتقالة بقبضة يدي بقوة وعصرتها

قبالة فمها، مع أول قطرة سقطت على شفاهها، كفت أسنانها عن الاصطكاك وانفتح فمها قليلا.

بمجرد أن عصرت آخر قطرة في البرتقالة، شعرت بيدي متيبسة عليها وعروقها منتفخة وجاحظة، وأسناني تكاد تنكسر من شدة الجز.

تسلقت "ليلى" كتفي بيدها الرفيعة الطويلة البيضاء، وهي مازالت مغمضة، وقتها دخلت علينا مسئولة الحرملك "زليخا"، والتي شهقت عندما رأتنا كما لو كانت رأت أركان الجريمة المكتملة. انتفخت وجنتها وهي تنادي الحراس لكي يأتوا ليشهدوا على الجريمة ويقبضوا عليّ.

ظلت "ليلى" نائمة على كتفي، وعلى وجهها ابتسامة تشهد على جريمتي هي الأخرى، حملها أحد الحراس إلى سريرها، وحملني حارسان إلى البهو حيث يجلس السلطان ومعهما "زليخا".. نزلت عليّ سكينة منعتني من شرح الحقيقة!

حكت "زليخا" ما رأته بجدية شديدة، كما لو كانت رأت والدة السلطان مع رجل حقيقي، وليست جارية مع "أغا". استمع السلطان بهدوء إلى القصة.. وأمر بإعدامي!!

فإذا كان تظاهره بغيرته على جواريه تساوي حياة "أغا" بلا قيمة، فالأمر هين، فالأغوات كُثُر، وكلٌ يعلم من يخونه حقًا في القصر، ولكن لا أحد يتكلم.. ولا هو يبالي.

سمعت أمر إعدامي في سكينة شديدة، وأنا أتعجب من نفسي وأتساءل:"هل جننت؟" شعرت أني شخصٌ آخر، لم أخف من شيء سوى على شعور "مالك"!

.....

حملني الحارسان إلى زنزانة القصر، نعم في قصر سلطاننا زنزانة يدخلها المغضوب عليهم الذين لا يعرضون على القضاة، فكل السجون حساب.. وهذه الزنزانة لعنة.

رآني حارس الزنزانة.. صديقي، من يذكر أن حارس جهنم ملاك؟!

كان "مالك" يسرّ لي كل ليلة وقت استراحتنا بقصص سجناء القصر وهو يبكي، يقضي وقته بشكل عام في رثاء المساجين.

لم يفلح "مالك" في جلد مسجون من قبل، أجبره مرة كبير الحرس على جلد أحدهم، فأغمى عليه، وعندما أفاق، ربطوه مكان السجين وجلدوه.

جلد "مالك" أسمك من جلد الفيل الذي جاء هديةً للسلطان من الهند، عندما أضربه مزاحًا، لا يشعر بضربتي مهما اشتدت، أحيانًا لا يشعر بقدومي أساسًا، وأقصى رد فعل أنه يحسبني ذبابة وقفت على كتفه، فيهشها. مع ذلك يوم الجلد، ظل يبكي لشعوره بالإهانة والذل. صوت "مالك" لا يتناسب مع ضخامته وسمرته الشديدة وغلظة ملامحه. بعد خروج كل سجين من الزنزانة إلى الإعدام أو المنفى أو إلى بيته حتى، يغني شعرًا حزينًا عن قصة السجين.

عندما رآني "مالك" قادمًا إلى الزنزانة مع الحرس وكبيرهم، شهق قائلا:"ماذا فعلت يا حزين؟" رد عليه كبير الحرس قائلا: "جاء ليلقى أجله، إذا هرب سأحمّلك المسئولية كاملةً، أنت صديقه وستكون أنت المتهم بتهريبه".

بعدما أُغلق باب الزنزانة ورحل الحرس، التفت لي "مالك" من الخارج والدموع تنهمر من عينيه، قلت له وأنا أضحك بجنون: "اتهموني في جارية"، لم يفهمني "مالك"، شرحت له قائلا: "نعم، اتهموني بأنها تخون

السلطان معي". ضحكت، فانفجر "مالك" هو الآخر من الضحك.

...

مر علينا الليل، وبعد ساعات، طلبت من "مالك" أن يعرف الأخبار ويطمئنني على "ليلى".

داهمني الصباح. حلمت بشجرة البرتقال ترقص على أنغام العود، استيقظت فلم أجد "مالك". بعدها بقليل، رأيته قادم، وأخبرني أنهم لا يجدون "ليلى" منذ البارحة، والجميع في حيرة من أمره، لكنهم لا يبالون في النهاية، فهي مجرد جارية.

لم أفهم شيئًا. العجب أزال من عقلي الخوف عليها حتى، ربما هناك سر!

انتظرت حتى الظهر، و"مالك" لا يقوى حتى على سلواي، ينظر بعيدًا ثم يلتفت إليّ، وإذا التفتُّ إليه، أشاح بوجهه الذي تسري دموعه الخرساء عليه عني.

بُعيد الظهر، داهمنا الحرس، حملوني إلى حتفي، لا السكينة تفارقني ولا الحياة تهمني، فهي لم تبالِ بي قط! "مالك" يبكي ويضع يده على فمه كأم تودع ابنها المسافر.

إعدام تافه مثلي لا يحتاج سوى حاشية القصر ليشهدوه. وأنا تحت السيف، رأيت "ليلى" ترقص على أنغام العود أمامي. لم أشِ بوجودها. كانت تحمل في يدها "برتقالة"، ترميها في الهواء وتلتقطها وهي ترقص. اقتربت وعصرتها في فمي ورحلت. ولكن لم يمهلني السيف أن أتذوق طعم البرتقال.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

صوتها

قالت بصوت أجش كصوت حبات حصى يطحنها قطار لم يزر القرية قط بضروسه: "وجبت البرتقالة"، بل تأخرت. كل ما سيحدث هو شكل من أشكال حفظ ماء الوجه ليس إلا، أو عقاب بالنسبة لها.

كانت تعبر السوق في عباءتها السوداء الثقيلة، قامتها القصيرة لم تتناسب مع طول العباءة التي تكاسلت أمها عن تقصيرها، حاولت الأم أن تعلمها بعض الأعمال المنزلية مبكرًا، ولكنها كانت تنشغل عنها بالأشكال التي يرسمها بخار الماء على الزجاج المغطى بالتراب، وإن تطلب ذلك تحمّل صفعةً شديدة على وجهها الصغير الذي اعتاد الصفعات، فلم يعد يبالي. الجو ثقيل محمّل بالخمول والموات وله رائحة خانقة.

obeikan.com

رغم أن العباءة جديدة، إلا أن أسودها أصبح باهتًا أقرب إلى الرمادي. يصعب على الصغيرة إمساك العباءة حتى لا تحتك بالأرض، فخمار رأسها في ثقل العباءة وإذا أمسكت العباءة سيسقط عن رأسها الخمار. العباءة والحصى يعاندان قدميها الصغيرتين. الطريق منحدر كحارس قوي يدفعها إلى الأمام لكي تسرع في الإتيان بطلبات المنزل.

....

أخي يجلس في المنزل لكي يحرسنا، أو هكذا تقول أمي، أما هي، فتحيك العباءات السوداء التي ترتديها كل نساء القرية على كواهلهن، وأبي يسن السكاكين، لذا أخرج أنا لأشتري طلبات المنزل.

ذهبت يومها إلى عمي "قاسم"، هو شاب في الثلاثينيات من عمره، يرتدي طاقية رمادية من القطن، ويقف دومًا في دكانه عاري الصدر، وقطرات عرقه ترسم مساراتها على جسده الأسمر، وإذا سكب على نفسه بعض الماء هروبًا من الحر، لمعت عضلاته.

أذكره في بيتنا بعمي "قاسم"، ولكني لم أناديه بهذا الاسم قط.

في قريتنا، لا يصح أن تتحدث الصغيرات أو تضحك أو حتى تحدث صوتًا. الكبيرات فقط هن من يتحدثن، نبهت أمي عليّ كثيرًا ألا أفتح فمي في السوق أو أي مكان خارج البيت.

....

صوت أمي سيء للغاية، أخشن من صوت أبي، وإن كان يُفترض في النساء دومًا النعومة والرقة عن الرجال. حتى ونحن صغار، كل أصوات نساء القرية أخشن من أصوات الغربان.

لم أسمع صوت جميل لإمرأة ناضجة من قبل سوى صوت "الست حسنات". انكشف ستر وجهي يومًا وأنا في السوق مع أمي، فساعدتني في لملمة جسدي من الأرض، وسألتني عن اسمي بابتسامة صافية وصوت عذب. عندما وجدتني أمي أكلمها، شدّتني من أمامها ومشينا بعيدًا، وهي تحذرني من الكلام معها مرةً أخرى. الحمد لله أنها لم تلحظني ومستوري مكشوف.

قالت لي صديقتي "شاجية" إن المتزوجات لابد لهن أن يأكلن جمرة ملتهبة قبل عقد القران، لهذا يكون صوت السيدات في قريتنا أجش!

ولذلك لا أريد أن أتزوج، ولكني أعلم أن أمي لن تسمح لي بذلك. الغريب أن "عفيفة" ابنة خالتي كان صوتها مثل صوت أمي رغم أنها لم تتزوج بعد، ولكنني لم أسألها عمَ جعل صوتها كذلك. لا أعلم لمَ لم أسألها، ربما خِفت أن أجرح مشاعرها أو ربما لأني صرت أخاف منها، ولكن ما أعلمه أن "عفيفة" لم تعد عفيفة التي أعرفها.

....

ما منح "قاسم" لقب "عمي" هو فرق السن بيننا، لكنه لا يمكن أن يكون عمًا لي، فهو أصغر من أبي وأعمامي بسنين، حتى أن سنه لا يسمح بأن ينجب فتاة في سني.

هو حتى لا يتعامل معي كتعامل من في سن أبي معي. من في سن أبي، لا يتحدثون معي. أجمع أنا المطلوب من الجوالات الموزعة على الأرض في دكاكينهم، وأعطيها لهم، فيروا ما فيها ويزنوها ويخبروني بالثمن، فأعطيه لهم، ليس إلا.

أما عمي "قاسم" فكان يحاول أن يحادثني وربما يغازلني. مرة أعطاني تفاحة هدية، ولكنني لم آخذها منه. في المرة التالية، أصر أن يعطيها لي، ووضعها لي في جوال الخضروات بالقوة، ولكني أمسكت التفاحة

ورميتها أمامه، وبعد خطوات، نظرت إليه خلسة، فوجدته ينظر لي مبتسمًا.

في المرة التالية، انتقى تفاحة بعناية من بين أخواتها وفركها بين يديه، ورماها لأعلى وتلقاها ثانيةً بيده وعيني معها، وقال لي إن أخبرته باسمي، سيعطيني هذه التفاحة، كما لو كان نسي أني رفضت تفاحة آخر مرة.

...

سألت "شاجية" عنه، فهي تعرف الكثير عن أهل القرية مما لا أعرفه أنا، لا أعلم من أين، حتى أني أحيانًا أشك أنها تختلق تلك المعلومات، ولكنني أضطر أن أصدقها، فهي مصدر علمي الوحيد بتلك الأشباح التي تحوم في هذا الهواء الأصفر الباهت، رغم أنها أصغر مني بحوالي سنتين.
سألتها إن كان متزوجًا أم لا وإن كان لديه أولاد، فلمّحَت بإعجابي به. "شاجية" سخيفة، تسخر من كل شيء، أنا لست معجبة به، فأنا فتاة مهذبة، ولكنني أشعر أنه معجب بي، فلتدعني حتى أخمّن زوج المستقبل الذي سيحرقون لساني من أجله. هو لطيف بلا شك، ولكنه لا يستحق أن أعيش بلسان محروق وصوت أجش من أجله، ولا يستحق أي رجل ذلك. ولكن إذا كان الزواج لزامًا، فسأوافق عليه إذا تقدم لخطبتي.

عندما تطلب مني أمي خضروات أو فاكهة من السوق وهي عندنا، كانت "شاجية" تنظر لي نظرات لئيمة بابتسامة موارية. في الحقيقة، هو ليس الشخص الوحيد الذي يبيع الفاكهة والخضروات في السوق، ولكن أسعاره أقل بفارق طفيف، بالنسبة لبقية الدكاكين. أذهب إليه حتى تفرح بي أمي أن جئتها ببضاعة رخيصة الثمن. ما يحدث أن أمي لم تلحظ هذا الفارق قط. ربما يعطيني الخضروات بثمن أقل بشكل خاص.

في الحقيقة، أنا لا أعلم شيء عن نواياه.

بالأمس، حاول أن يمسك يدي وأنا أنتقى الخيار. كان يختار لي الخيار الأفضل، أو هكذا تصنّع. كل ما فعلته هو أني أفلتُّ يدي من بين يديه وأكملت ما أفعله وأعطيته ثمن بضاعته ومشيت. أمي علمتني أنه إذا حاول رجل الإمساك بي أو مغازلتي أن أهرب منه في هدوء، فلا يصحِ أن أتكلم أو أن أضربه أو أصفعه، فالرجل يبقى رجلًا مهما كان. الهرب فقط هو الفعل السليم.

عندما أخذت البضاعة ومشيت، عوج طاقيته على جبهته. عندما ابتعدت عن دكانه قليلًا، حاولت أن أنظر إليه، فوجدته مبتسمًا ابتسامة زهوٍ ما، حتى أني شعرت

أني رأيت لمعة عينيه من هذا البعد في هذا الجو الغابر. كدت أن أتعثّر وأنا أنظر إليه.

اليوم يوم تاريخي. لأول مرة أخرج عن صمتي خروج أبدي وإن لم يكن حرًا.

في هذا اليوم، ذهبت لعمي "قاسم" كالعادة. كانت تغمرني سعادة ما كنت أحاول أن أنكرها. نظراته لي زادتني سعادة. كنت مبتسمة ابتسامة عريضة لا يبدو منها من تحت ستري سوى اللمعة في العين الواحدة التي كنت أكشفها من العباءة حتى أرى. ابتسامة تنتظر أي شيء ينغزها لتصبح ضحكة. أعتقد إنه أدرك هذه الابتسامة بشكلٍ ما.

لا أتذكر ماذا قال ساخرًا من السيدة البدينة ممتلئة الأرداف، ولا أعلم كيف لفت انتباهه امتلاء أردافها وهي مغطاة بتلك العباءة السميكة. المهم أني ضحكت ضحكة رنّت في أرجاء السوق. ضحكة تشبه تلك التي أضحكها مع "شاجية". ساد الصمت السوق، كالسحابة الرمادية التي تخيّم على قريتنا ولا تفارقها. أشعرني الصمت أني ضحكت أعلى ضحكة في الكون، وعلمت وقتها أن القرية الكئيبة لن ترحمني.

حملت البضاعة وجريت إلى البيت، لا أعلم كيف وصلت بهذه السرعة بهذه العباءة الثقيلة وكيف لم أتعثر بها.

سألتني أمي عن سبب لهاثي، فقلت إني شعرت بأني تأخرت فخفت أن تغضب هي مني. مصمصت شفتيها ولم ترد.

علمت يومها أن الحياة ستسترسل بلياليها السيئة.. جلست في حجرتي، وأنا أتوقع كل ما يمكن أن يحدث: سيقتلونني، سيضربونني حتى الموت، سيكوونني بالنار، سيتركونني بلا طعام أو شراب. في كل الأحوال، صرت عار العائلة.

ثم خطر ببالي خاطر منحني سنة النوم التي أفقت منها على مصيري المحتوم: من سيعرف أني من ضحكت؟

لا أحد يرى مني شيئًا. لا أحد يستطيع أن يميزني عن باقي البنات. عندها ارتحت.. ونمت.

أفقت على أمي وهي تشدني من شعري وتصفعني، علمْت وقتها أنها علمَت.

كانت هناك سيدة أخرى في حجرتي، متشحة بالسواد، حشرت في فمي برتقالة صغيرة ملتهبة. انحشرت

البرتقالة بالفعل في فمي، لم أستطيع أن ألفظها ولا أن ابتلعها. حمضها الساخن ظل يتسلل إلى بلعومي، ليحترق مثل حلقي. لم أستطع حتى الصراخ. كان أملي الوحيد وقتها أن تصب البرتقالة بعض عصيرها الحارق في جوفي، فتصير أصغر، فأستطيع أن ألفظها.

شعرت بمرور وقت طويل حتى حدث ذلك، وعندما حاولت أن ألفظها، كممت تلك السيدة فمي بمنديل مبلل بماء بارد. برودة المنديل زادت من سخونة البرتقالة في حلقي، لا أعلم إن كانت بللت المنديل لمزيد من التعذيب أم أنها تتصوّر أن المنديل سيمتص سخونة البرتقالة قليلًا. ألم تخبرهم أي فتاة أو سيدة أن فكرة المنديل تلك سيئة للغاية؟

تلاشت البرتقالة في فمي بعد مدة وتلاشى فمي معها. أحسست أن جسدي ينتهي حتى أنفي والبقية ليست تابعة لي. أحسست أني جمرة أو أني برتقالة محترقة.

حاولوا بعدها أن يسقوني الماء، ولكني كنت ألفظه في وجه كل من أمامي. رقدت في سريري ليلتين ظننت فيهما أنني مت وأن الله يعاقبني الآن في النار، وأني يُصَب الآن في حلقي حديدًا مصهورًا.

وبعدها أفقت وصوتي مثل صوت أمي. وعندما أفقت، خرجت من غرفتي، فوجدت أغلب نساء القرية مجتمعات في بيتنا وعندما رأوني بدأن في العواء على سبيل الفرحة.

مرت عليّ النساء يعانقنني ويقبلنني، فشعرت بأفواههن على خدي كأنها عضّات مستعرة. تمنيت الهرب من القرية ولكنّي على النقيض جلست بينهن في استكانة، مثل صوتي الذي أراد الانطلاق والصراخ ولكنه استتر.

أمي أخبرتني أني من الآن فصاعدًا أستطيع أن أتكلم مع الغرباء: "وأن تضحكي أيضًا". قالتها بنبرة تجمع بين اللوم والشماتة، أو هكذا شعرت بها. هي الآن تعلم أن ضحكي الآن أصبح مقيتًا للغاية مثل ضحكها. أظن أن هذا الإجراء فعلته أمي من سبيل الحقد على صوتي.

...

عندما تماثلت للشفاء، ذهبت إلى السوق.

وصلت إلى عمي "قاسم" وطلبت منه ما أحتاج. كان بإمكاني أن أنتقى ما أريد وأعطيه ثمنه، ولكني أردته أن يعلم ما حدث لي .... ربما بسببه.

عندما سمع صوتي، ابتسم ابتسامة تجمع بين المتعة والشفقة. ظل مثبتًا عينه عليّ حتى رحلت، حتى عندما انحنى ليأتي بتفاحة سقطت من جوالها ظل ناظرًا لي. اليوم لم يعرض عليّ أي تفاح. ربما هو أيضًا السبب في أن كل بنات القرية سيفقدن صوتهن العذب.

....

علمت بعدها أن هذا هو الإجراء لازم عند بلوغ أي فتاة والعلامة فوران جسدها، وأن الأمر كان سيحدث أكان عقابًا أم لا. صار لساني يلهج بكراهية أمي بصوتي هذا، وكل نساء القرية حناجرهن تنشد أغنية كراهيتهن لبيوتهن وأمهاتهن وأهاليهن وقريتهن: أنشودة الغربان.

❊ ❊ ❊

ولكني أيضًا لم أضع المشمّع

حال الندى دون أن تجف الملابس التي نشرتها بالأمس في الشرفة.

استيقظَت في الخامسة صباحًا كعادتها لتؤدي بعض الأعمال المنزلية قبل النزول للعمل. أخرجت الدجاجة من الثلاجة ليذوب من حولها الثلج بحلول نهاية النهار، وضعت الخضار على النار لتسويته نصف تسوية، حضّرت الساندويتشات لأطفالها الذاهبين إلى المدرسة.

بدأت حفلة الاستيقاظ ما بين "أحمد"، الذي ينام نومة أهل الكهف ولا يستيقظ حتى لو تهدّم البيت فوق رأسه، و"ملك" التي تدّعي كل يوم مرضًا جديدًا حتى وإن لم تكن تعرف معناه، أو حتى لو لم يكن له وجود، حتى لا تذهب إلى المدرسة.

obeikan.com

في مرة قالت إنها مصابة ببعض الشيخوخة نتجت عنها كحة تفتعلها ومرة قالت إنها مصابة بـ"الاستبحس". في الغالب، هي تشاهد التليفزيون، لتقتبس منه أسماء الأمراض.

حانت الساعة السادسة والنصف، فأيقظت "منال" زوجها "كريم" الذي ورث منه ابنه ثقل النوم. فتحت الشرفة لترى إذا كانت الملابس جفت أم لا، فوجدتها مازالت مُندّاة. دخلت لتحضر مشمّعًا بلاسيتيكيًا خوفًا من أن تمطر السماء، فتلطخ الغسيل. ولكنها شمت رائحة الأكل، فتذكرت أنها لم تُطفئ النار. جرت إلى المطبخ وأغلقت جميع عيون البوتاجاز بما فيها العين التي تغلي فوقها مياه شاي "كريم".

بمجرّد أن قدّمت له كوب الشاي، سمعت ابنتها الصغيرة تصرخ، فجرت نحوها. وجدتها في غرفتها تحاول أن تصفف شعرها، فتشابك شعرها حول المشط وصار يؤلمها كلما حاولت فك التشابك.

تنهدت "منال" وتمنت أن يمر صباح بشكل طبيعي دون أن تُحدث فيه "ملك" مشكلة. وبّخت "ملك" وضربتها ضربة خفيفة وحملتها فوق السرير لتبدأ حفلة ارتداء الملابس وهي تبكي.

عبّأت "ملك" داخل شرابها الطويل وأغلقت لها سوستة المريلة المدرسية وشدّت قميصها المدرسي من أسفل

المريلة. دخل أحمد أثناء تلك الحفلة خاملًا من الحمام، فجلس على السرير والمنشفة على كتفه.

كانت "منال" تستنهضه ليرتدي ملابسه بالتدريج وهي تصفف شعر "ملك" المتألمة على عجالة، تبدأ بتدليله ثم تأمره بارتداء ملابسه وهي تجز على أسنانها متوعدة، ثم تصرخ فيه وقد تقذفه بشبشبها.

ذهبت "منال" إلى حجرتها لترتدي ملابسها هي الأخرى على عجل حتى لا تمنح الفرصة لأي مشاجرة بين "ملك" و"أحمد" أن تحدث وهما يفطران. أغلق "كريم" الشرفة، فالجو بارد. كان يفاجئها كل دقيقتين بطلب كالعادة، أن تكوي له قميص قرر أن يرتديه فجأة أو تعثر له على شراب أو حزام أو تخيط له زِر.

حان وقت الرحيل، تأكدت "منال" من أنها أغلقت كل عيون البوتاجاز وأخرجت الفرخة وأطفأت المكواة. ركبوا جميعهم السيارة، وأوصلها "كريم" إلى مبنى حي وسط القاهرة بالعباسية، حيث تعمل قبل أن ينقل الأولاد إلى مدرستهما ثم ينطلق إلى عمله.

وصلت "منال" إلى العمل، فوجدت زملاءها بداخل أوتوبيس العمل ينتظرونها. مجرد أن تحرك الأوتوبيس لمسافة بسيطة، خبطت "منال" جبهتها بكفها حين تذكرت أنها لم تغطِ الغسيل بالمشمع، فطمأنتها زميلتها

بـأن السـماء صـافية ومشمسـة وإنـه مـن غيـر المتوقـع أن تمطر.

الحجر خـائن، كزوجـة جميلـة لعوب تهملهـا فتخـون، هو متاح مثلها ومثل شجرة تأوي كل شريد.

لـم تـدخل "منـال" كليـة الهندسـة بسـبب التنسـيق، ولكـن الحجـر أواهـا أيضًـا. كفل لهـا منصـب والـدها فـي الحـي وظيفة، فتعلقت في أثواب الحجر. كلما ذهبت إلـى منـزلٍ متهـدمٍ وجـدت جميـع السـكان وأنـاس مـن غيـر السـكان متعلقـين بثـوب الحجـر هـم الآخـرون، يـدّعون ملكيـتهم لإحدى شقق البيت بإيصالات كهرباء أو تليفون أو عقود مزوّرة، طامعين في الإيواء، إن كان الإيواء مطمع.

وصلت "منال" وزملاؤها إلـى المنـزل وارتفعت عيناها إلى أعلى نقطة فيـه، منـزل أغلبـه متهدم وإن بقـى بعضٌ من بعضِ شرفاته في الجزء الأخير منـه، تخـاف أن تمر بجانبـه حتـى لا يتهـدم بقيتـه فـوق رأسـك. وبينمـا تتجـوّل "منـال" بعينيهـا علـى واجهـة البيـت، وجـدت حبـل غسـيل عليه الملابس نظيفة. شيء طريف أن يسجد المنـزل كلـه علـى الأرض ويتـرك هـذه الملابـس دون أن تمسـها ذرة غبـار. الملابـس مرتّبـة الترتيـب التقليـدي لنشـر الغسـيل: ملابـس الكبـار فـي المقدمـة، يليهـا ملابـس الصـغار ثـم الملابـس الداخليـة، و.... قميـص "كـريم" المقلّـم! فسـتان "ملك" الأحمر! بنطلون "أحمد"!

الملابس المنشورة هي نفس الملابس التي تركتها "منال" بدون مشمّع. لا يوجد مشمّع فوق الملابس أيضًا، مع ذلك هي محمية. لم تفكّر "منال" إذا كانت الملابس في بيتها محمية من الأمطار مثل هذه الملابس أم لا، فما أن رأت ملابس أطفالها، حتى صعدت فوق الهدم مسرعة.

أسرع وراءها المهندس "نبيل" حتى يمنعها من الإسراع دون حذر، ناداها وأمسك يدها وصعدا متأنيين، حتى وصلا إلى الشقة المنخفضة المفتوحة على الشارع بفعل الانهيار، وتحركا بداخلها بهدوء، وجدت "منال" على منضدة الطعام دجاجة نيئة يكسوها الهدم، ودّت أن تدخل الشرفة ولكن "نبيل" منعها حتى لا تنهار وهي فيها.

اتصلت "منال" بـ"أحمد" ولكن وجدت تليفونه المحمول مغلق. الوقت مازال مبكرًا ولم يحن وقت الفسحة. اتصلت بـ"كريم"، فلم يرد. نزلت مع "نبيل" واستأذنت مديرها لتذهب إلى مدرسة الأولاد لأن المدرسة أخبرتها أن ابنتها تعاني من ارتفاع الحرارة، لذا ستذهب بها إلى جدتها ثم تعود إليهم في أسرع وقت. لو أخبرت المدير بالحقيقة، لاتهمها بالجنون. وافق المدير متأففًا وهو يغمغم لاعنًا اليوم الذي نزلت فيه المرأة إلى العمل.

ركبت تاكسي انطلق بها إلى المدرسة، صعدت فصل "ملك" متحججة بأنها تسأل المعلمة عن ابنتها وعن

مستواها وسلوكها في الفصل، فوجدت ابنتها جالسة في مكانها، فسألت معلمتها عنها، وذهبت إلى أحمد في فصله، لتجده بخير هو الآخر. اتصلت بـ"كريم" ثانيةً، فرد عليها باديًا عليه أنه بخير، فطلبت منه أن يشتري بعض الأشياء للمنزل.

عادت "منال" مسرعةً إلى المنزل ودخلت الشرفة، فوجدت الملابس جفت. بالفعل الملابس المنشورة هي نفسها المنشورة في المنزل المتهدم. لملمت الملابس وتركتها على السرير. ألقت نظرة على الدجاجة المتجمدة، فوجدتها مكانها ولكن الثلج بدأ يذوب من حولها.

نزلت وركبت تاكسي مسرعةً إلى مكان المنزل المتهدم. كانت اللجنة عادت إلى مبنى الحي. صعدت بعينها إلى الدور الذي وجدت فيه الملابس المنشورة، فلم تجد شيئًا.

عادت إلى مبنى الحي، وسألت "نبيل" وبقية الزملاء عن تلك الملابس المنشورة، فلم يتذكر أحدهم أنه رأى شيئًا غريبًا كهذا.

❊ ❊ ❊

لعبة بلا قواعد

مررت يومًا وأنا طفل بعرافة تضرب الودع، سألتني إذا كنت أريد أن أقرأ طالعي، فأخرجت لها من كيس أحمله ثمرة رمان مما أرسلتني أمي لأشتريه، قالت لي: "كيف عرفت أنني تمنيت أن آكل رمان لتوي؟ إما أن تكون وليًا وإما أن الله راضٍ عني وأراد أن يودني". فردَت قماشة على الأرض وأشارت لي أن أجلس وأخرَجَتْ سكيناً صغيرًا من جيبها وقطعت الثمرة نصفين وأعطتني أحدهما.

obeikan.com

- عشان يبقى عيش وملح. شوف أنا مش هقرالك الطالع، أنا هقولك حبة من اللي ربنا فتح بيه عليا: عشان تلاعب القدر لازم تعرف شوية حاجات. القدر زي البنت البكر ما يعديش من قدام عيون الناس، لازم يدوله ضهورهم عشان يحصل، فلما تعوز حاجة تحصل، دوّر لها ضهرك عشان تحصل، ولو مش رايدها تحصل، بحلق في عين القدر. ولما ربنا يبليك بحاجة عِفشة اعرف إن حاجة من الاتنين: يا إما كاتبلك خير وعايزك تفرح بيه قوي، فيوريك العِفِش لجعل ما تشوف الزين زين، أو كاتب لك حاجة أعفش، وبياخدك بالراحة رأفةً بيك. وبلاش تتعشم. وأقول لك اللي أحسن؟ ماتسبقش الأحداث، إلا لو هتضرب الودع".

سمعت كل حديثها وصدّقته ما عدا الجملة الأخيرة. أنا روائي وسيناريست، فكيف لي ألا أسبق الأحداث؟ أنا قدر أبطال قصصي، أقبض روح فلان، وأجعل فلان يحب فلانة، وأقدّر لهما ألا يتزوجا. يومها أكلت نصف الرمانة وهضمتها وهضمت معها كلام العرافة، وقررت أن ألعب مع القدر باستخدام قواعدها. لم أنسَ كلامها أبدًا. ظل مثل حجاب حارس أحمله طيلة عمري.

...

غدًا يوم نتيجة الامتحانات النهائية، فلنجرب نصائحها. زرعت في رأسي فكرة أني سأرسب وسلّمت بها، وخرجت للعب الكرة مع إخوتي وأصدقائي. تطل أمي من الشبّاك كل نصف ساعة، تسألني عن النتيجة، فأخبرها أن صديقي ذهب ليحضرها، فتوبخني أني لدى من اللامبالاة ما يجعلني ألعب الكرة في هذا الوقت، بينما هي على جمر النار.

أتى صديقي وهو يتهمني باللؤم، فأنا حصلت على أعلى درجات نلتها في حياتي. علمت وقتها أن تلك العرّافة أتاها الله علمًا لدنّيًا، وأن ما قالته حقًا.... وجرّبت قواعدها كثيرًا.

عندما التحقت بالجامعة، سجّلت في مسابقة للرواية، لم أسأل عن ميعاد النتيجة، لم أتابع ولم أخبر أحدًا أني قدّمت في المسابقة، برغم إلحاح أصدقائي عليّ بأن أتقدّم، قطّعت كل الأحبال البالية حتى لا أتعلّق بها وأغلقت كل أبواب العشم.

عندما فُزت بالجائزة الأولى، غضب أصدقائي مني لأني لم أخبرهم أنّي قدّمت في المسابقة.

حيرتني القاعدة الثانية كثيرًا. ما الفائدة من معرفة أنه إذا حدث شيءٌ سيئٌ، فسيحدث ما هو أسوأ منه أو سيحدث

شيء مفرح للغاية؟ هذا يعني أن كل الاحتمالات واردة. هل مطلوب مني أن أجري قُرعة بين الاحتمالين؟

عدم فهم الحقيقة لا يمنع حدوثها. منذ سنوات، مرضت أمي ودخلت المستشفى، دخلنا في دوامة من المتاعب وقتها، كان يجب نقلها للعناية المركّزة ولم نجد مكان لها في أي مستشفى إلا بعد عناء. كان أبي انتهى من تجهيز وتزويج أختي لتوه، وباغته مرض أمي ولم يكن معه من الأموال ما يكفي. كنت أعمل لأوفر النقود، ثم أعود لأخدمها بعد أن خرجت من المستشفى، ما أن استقرت حالة أمي وعادت إلى طبيعتها، حتى وجدت منتجًا قَبِل أن يمضي معي عقد أول فيلم لي.

...

علمت بعدها أن الخيار الثاني تغلّب على الخيار الأول، حتى حدث العكس. اختلفت أنا وأول حب وافترقنا، أو بمعنى أصح ضغط عليها أهلها لتتركني بسبب عدم إيمانهم بأني سوف أوفر لها حياة مادية مستقرة. فشل ثاني فيلم أؤلفه، أو بمعنى أصح غطى تكاليف إنتاجه بالكاد. كانت سنة نحسي. رأت أمي وقتها أن السينما هي سبب مشاكلي، وأني لو كنت التحقت بعمل ثابت، لتزوجت ممن أحب ولما تجرعت ألم الفشل. كلما حدث

شيءٌ سيئٌ، قلت لنفسي إنه بالتأكيد إشارة لحدث مفرح قادم. ربما هو العشم الذي أفسد الخلطة؟

صحيح أني أحببت في السنة التي تلتها وكتبت فيلمًا جديدًا ونجح، وكتبت رواية ونجحت وانتشرت وطبعت منها أكثر من طبعة، فلماذا لم أطبّق القاعدة على السنتين سويًا؟ ربما تأتي الحكمة في كلام العرافة في أنها أحوال الدنيا التي تصعد وتهبط بسفينتك مثل موجة بحر حائرة. هي معادلة، إذا أدخلنا عليها العشم، سنجد أن كلام العرافة صحيح. الدنيا امرأة لعوب متمنعة، كلما صعّرت لها خدّك، كلما أحبتك، وإذا تلهفت عليها، أذلتك.

...

اللعبة تزداد شراسة، وأنياب الوحش تكاد تلمس وجهي. الفوز في اللعبة الآن يعني حياة أو موت، أو بمعنى أصح ليس أمامي سوى هذه المقامرة.

أنا أقرب لأبي من أمي، ولذلك أكرمني ربي بأنه لم يمُت قبلها. كان بإمكان وجوده أن يهوّن وفاة أمي، ولكن لم يكن لدى أمي القدرة على فعل ذلك إذا توفى قبلها.

كان قربه مني كافٍ لأن أدعو دعوة الأحبة الأنانيين: "ربنا يجعل يومي قبل يومك".

الحالة تتدهور والأطباء ينفرط من بين أصابعهم عقد الحلول، والموت ينتظر على باب البيت فريسته.

الأمر ليس في علةٍ بعينها، أستطيع أن أقول أن صلاحية أبي انتهت. ليست المشكلة تلك المرة في الأموال، ولكن الطب لا يمنع القدر، فهل أمنعه أنا؟

وقتها، كان كلام العرافة هو القشة الوحيدة التي قد تنقذني من مرارة الفقد. وقفت أحول بين أبي والموت كحارس يخاف على كنز من السرقة، أصابني الأرق، كلما غفلت عيني استيقظت مذعورًا، حاول الأطباء نصحي بأن أنام بشكل جيد، فسهر الليل لن يغيّر شيء.

في يوم تحسنت حالة أبي. طلب أن يأكل بعد أن كانت شهيته منعدمة، حكى لي عن أحلامه التي كان يراها وهو مريض. وطلب مني أن أفتح التليفزيون، وعندما رأى فيلم "دعاء الكروان"، قال لي أنه شاهده في السينما.

قال الجملة ومات.

سرقه الموت أمام عيني وأنا عاجز تمامًا، وضرب بكلام العرافة عرض الحائط.

❊ ❊ ❊

لم تتفق المواعيد بعد

هذه هي المرة السادسة التي أحاول فيها أن أوفق المواعيد ولا أنجح. في كل مرة، أجد صعوبة في ضبط الميعاد ليناسبهما هما الاثنان، وإذا وصلت إلى هذا الميعاد المستحيل يعتذر أحدهما عنه في آخر لحظة دون أن يستاء الطرف الآخر.

ما أسهل أن أطلب من أحدهما موعداً لأقابله، لكن عندما أريد أن أقابلهما سويًا، لابد أن تكون مواعيدهما متنافرة.

obeikandl.com

أشك أنهما يقابلان بعضهما البعض من وراء ظهري، فيتعلل أحدهما بميعاد حتى لا أعلم بمعرفتهما ببعضهما البعض.

الغريب أنهما لا يجدان أي داعٍ من مقابلة بعضهما البعض، ولا يفهمان لماذا أصر عَلى تلك المقابلة.

كان "شادي" زميلي في كلية الآداب، وما زلنا أصدقاء رغم مرور خمس سنوات على تخرجنا. لم يعمل أيٌّ منّا في مجال الدراسة، الذي لا أعرفه أنا شخصيًا.

كان "شادي" يحلم ببناء مطعمه الخاص، عمومًا هو موهوب في مجال التجارة، كانت المعارض الطلابية من اختصاصه، تعرّفنا في مشروع من مشاريعه، اكتشف "شادي" فيّ موهبة تلخيص المناهج وكتابة الملازم، كنت أنا "دحيحة" الدفعة وأفضال ملازمي على الشاطر قبل البليد. كان "شادي" شهمًا، فلم يطلب مني أن أبيع الملازم لزملاء دفعتنا، ولكننا كنّا نبيع الملازم للدفعات الأصغر وأحيانًا الأكبر، وأحيانًا نبيع ملازم لمناهج الكليات الأخرى.

شهدت جميع انتكاسات "شادي" العاطفية، "شادي" صديق رائع ولكنه حبيب هوائي جدًا، لا يعلم ماذا يريد.

بعد تخرجنا من الكلية، ظهر لدى "شادي" اهتمام بالإلكترونيات: التليفونات المحمولة وأجهزة أخرى لا أفقه عنها شيئًا حتى الآن.

صار يجدد كل فترة هاتفه، ولا يكف عن الحديث عن التكنولوجيا الحديثة، وكلما سألته عن حبيبته الأخيرة، قال لي إنه تركها وعرف غيرها. شعرت وقتها أن حياته تنقلب وأنه غير مستقر نفسيًا. قد يكون ذلك بسبب وفاة والدته وقرار والده الزواج من شابة صغيرة لا يزيد سنها الكثير عن سن "شادي". تعامل مع الأمر بسخرية، ولو أني أعلم أنه يفتعل تلك اللامبالاة. يغضبني كتمانه ويشعرني دومًا أننا لسنا أصدقاء بحق.

اليوم قابلت جارنا الجديد "عمو شادي" في المصعد. رجل لطيف. أبى إلا أن أدخل المصعد قبله كأي رجل مهذب، لم يتجنب الحديث معي كباقي سكان العمارة من الرجال، وفي نفس الوقت لم يقتحمني في التعارف.

تحدث معي بأسلوب أبوي لطيف وعرّفني بنفسه باعتباره الساكن الجديد في الشقة المجاورة، وتعرّف عليّ وسألني عن دراستي وعملي في الدقيقة التي نزلنا فيها.

شعرت بالراحة في الكلام معه، كان مألوفًا بالنسبة لي بشدة، أشعر أني رأيته من قبل كثيرًا، رجلٌ أصلع يبدو

من المتبقي من شعره أنه أشقر، أبيض اللون ومتوسط القامة، النظارة الثقيلة تخفي عينيه العسليتين والتجاعيد حولهما قليلًا. لا أعرف أين رأيت هذا الوجه من قبل.

نزلت لأشتري بعض الملابس، فهاتفني "شادي" وأخبرني أنه سيمر عليّ لأنه قريب مني ولأنه لم يرني منذ فترة. عندما رأيته، تذكرت "عمو شادي"، إنه يشبه "شادي" للغاية كأنه نسخة كبيرة السن منه!

"عمو شادي" و"شادي"! نفس الاسم!

ظل "شادي" يتحدّث عن أحواله وأنا في عالم آخر: عالم وجهه ووجه شبيهه.

إذا ارتسمت بعض التجاعيد حول عيني "شادي" وارتدي نظارة وقلت النضارة في وجهه وخف شعره وانحنت قامته قليلًا، لصار "عمو شادي". لاحظ "شادي" عدم تركيزي، فتعللت بالإرهاق.

عدت إلى المنزل والصور مبعثرة في عقلي. سألني والدي عن يومي، فأجبت بابتسامة مفتعلة تائهة، وأريته ملابسي الجديدة التي اشتريتها.
حكى لي أبي عن جارنا الجديد الذي قابله في السوبرماركت. سكتُّ قليلًا ثم حاولت أن أجاريه في الحديث. أخبرني أنه لطيف وأنه ليس لديه زوجة ولا أبناء.

اقترحت على أبي أن ندعوه على الغداء غدًا، عقلي لن يحتمل التفرس في طيف وجهه كل دقيقة ولا تقليب الاحتمالات، إذا دعوناه في وقتٍ لاحقٍ. هل هو أبو "شادي" الحقيقي أم أنه قرينه؟

قابل أبي "عمو شادي" في الصباح، وهو يُخرِج القمامة ويسحب جريدته الصباحية من أمام الباب، ودعاه على الغداء اليوم، فوافق لتوه.

الحمد لله أن اليوم الجمعة. اشتريت متطلبات الغداء في حماس، وتمنيت ألا أقابل "عمو شادي" حتى يأتينا على الغداء. كنت أحاول إبعاد أي أفكار غريبة عن رأسي. الطهي وسيلة رائعة للإلهاء.

لم أبخل بطعام أبرع في صنعه. زينت المائدة وشغلت الوقت كله حتى جاء "عمو شادي".

باعتبار تلك الدعوة أول لقاء مطوّل، فهي فرصة جيدة ليحكي كلٌ عن حياته. "عمو شادي" مطلّق. انفصل هو وزوجته قبل أن ينجبا لحسن الحظ ــ على حد قوله ــ، قال إنها المرأة الوحيدة التي أحبها، ولكن ذلك لم يحمِها من طبعه. "عمو شادي" مدير عام لشركة إلكترونيات.

وهو يستمع إليّ، عقد أصابعه أمام وجهه. هو عمومًا يستخدم أصابعه كثيرًا وهو يتحدث، مثل "شادي" تمامًا.

سألته عن أبيه وأمه وأخواته، فقال إنه ابن وحيد. أمه ماتت في شبابه، وأبوه تزوج بعدها شابة في سن "عمو شادي" وقتها. ظل في منزله القديم، حيث عاش مع أمه وأبيه بعد أن تركه أبوه ليتزوج، وتزوج هو بعدها فيه، وبعد أن انفصل هو وزوجته، ترك المنزل الذي أصبح محمّلًا بالذكريات وانتقل إلى شقته التي بجوارنا، لعل حياة جديدة تبدأ.

نظر لي أبي شذرًا معاتبًا أني ذكّرت جارنا بذكرياته الأليمة، فحوّلت دفة الحوار.

أخبرته أن لي صديق مهتم بالإلكترونيات للغاية، وأني أفكر في ترتيب لقاء بينهما، لعل صديقي يستفيد من خبرته. قال لي إنه ليس لديه مشكلة، ولكن هذا الشخص لن يستفيد منه الكثير، لأن الخبرة تكتسب بالقراءة والمعرفة.

أصررت على لقائهما، قلت له إنه يشبهه بشدة شكلًا وموضوعًا، فأخبرني إنه ليس لديه مانع من تلك المقابلة.

أنا الآن متأكدة من وجود صلة بينهما.

عندما قابلت "شادي"، حكيت له عن جارنا وأخبرته برغبتي في أن يلتقيا وتحججت بأنه سوف يفيده للغاية في العمل في مجال الإلكترونيات. لم يهتم "شادي"، أو

بمعنى أصح لم يرد. قال إنه يهتم بالإلكترونيات بشكل شخصي، ولا ينوي العمل في هذا المجال للأبد، رغم أنه حكى لي منذ قريب أنه عمل مندوبًا لشركة إلكترونيات بشكل مؤقت واستطاع بيع كمية كبيرة في وقت قصير. وقتها حكى لي عن نجاحه هذا بشغف لم أره في عينيه من قبل. بدا أن هذا الشغف هو الذي شجّع الزبائن على الشراء.

صرّحت له أنه يشبه هذا الرجل كثيرًا، لذلك أنا متحمسة ليلتقيا، حتى أن لهما نفس الاسم. قال "شادي": "هل سنتقابل لأننا نشبه بعضنا البعض؟ ما المشكلة؟ يخلق من الشبه أربعين".

سألته إن كان هناك أي غموض حول فرد من أفراد عائلته، فقد يكون هذا الرجل قريبٌ له لا يعرفه، فاتهمني بالجنون. لم أرِد أن أتزيّد وأسأله إن كان أبوه الحقيقي، فقد يهينه سؤال كهذا. ألححت في طلبي، فأعطاني مستسلمًا ميعادًا مناسبًا له.

طلبت من "عمو شادي" أن نتقابل في هذا الميعاد، فقال لي إنه سيسافر لمدة شهر.

انتظرت فترة سفره، وبعدما عاد، سلمّت عليه عندما قابلته في العمارة، وطلبت منه ميعادًا جديدًا، فأخبرني أنه يناسبه الغد فقط، لأن بعدها سوف يكون أمامه الكثير

من العمل يجعله يسهر في الشركة. لم يناسب "شادي" الميعاد. ظل الأمر على هذا المنوال. كلٌ منهما يعطيني ميعاد، لا يناسب الآخر.

اتفقنا على ميعاد. سنقابل "عمو شادي" في مكان بالقرب من عمله. نزلت من بيتنا. جاء "شادي" بعد نصف ساعة من الميعاد المحدد، أما "عمو شادي" تأخر لمدة ساعتين. اتصلت به أكثر من مرة، ولكنه لم يرد. الفضول مازال يسمرني في مكاني، بينما امتعض "شادي"، الذي جاء بالأساس على مضض، وأراد أن يرحل. لم أعلم أن أمر اللقاء بينهما ثقيلًا إلى هذا الحد، في النهاية، رحلنا دون أن يأتي "عمو شادي".

في اليوم التالي، رأيت نعيًا معلقًا على باب المصعد لـ"عمو شادي". مات! لم يُكتب لـ "شادي" أن يقابله.

في اليوم التالي، ذهبت إلى العزاء مع أبي بعد صلاة المغرب. قبل أن أتجه إلى عزاء السيدات، لمحت "شادي" في العزاء. كان يبكي بحرقة شديدة. اقتربت منه لأعزيه، فرأيت سيدة في عمر "عمو شادي" تشد على يد "شادي" وتواسيه. اقتربت أكثر منهما كي أواسيهما. وجدتها تبكي بأسى هي الأخرى. كانت تكح من كثرة البكاء.

كانت تشبهني كثيرًا. تشبهني لدرجة مخيفة. نظرت إليها وجريت. طلبت من أبي أن نعود إلى المنزل لأني متعبة.

بعد فترة، اتصل بي "شادي" وأخبرني أنه يريد أن يقابلني. كنت أفتقده بالفعل، ولكن شيئًا ما كان يخيفني من هذا الافتقاد ويمنعني من أن أتصل به.

تقابلنا وأخبرني عن أحواله وأخبرته عن أحوالي. أخبرني أنه عمل في شركة إلكترونيات، عرفت من اسمها أنها نفسها التي كان يعمل بها "عمو شادي"، ولكني لم أعلّق.

تردد "شادي" كثيرًا قبل أن يقولها. بعد عناء، أخبرني أن صداقتنا ما هي إلا وجه من وجوه حبه لي. نعم، هو يحبني. وقتها شعرت بنفس الإحساس ولكني رفضت حبه. لم أرِد أن أكون تلك السيدة التي شدّت على يده في العزاء.

❊ ❊ ❊

obeikan.com

الفهرس

إهداء ٥
الشجرة ٧
زجاجات فارغة ١٣
نشاطركم الأرواح ٢٢
فى وداعة الذئب ٣١
قمر ترجل ٣٧
سحابة وردية معبئة في كيس ٤٤
ستو الحاجة ٤٨
عجز ٥٤
استدرار لعطف اللبن ٦١
نقطة اللا رجعة ٦٦
لكل حمامة وليف ٧١
شالك رفرف ٧٥
وجه من النوع المألوف ٨٠
لما بدا يتثنى ٨٥
صوتها ٩٤
ولكني أيضاً لم أضع المشمع ١٠٥
لعبة القواعد ١١١
لم تتفق المواعيد بعد ١١٧

obeikan.com